سعاد .. الإنسانة

عاشقة الوطن

الجزء الأول

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

سعاد ... الإنسانة

عاشقة الوطن

الجزء الأول

من كتاب منارة على الخليج

الشاعرة سعاد محمد الصباح

كتاب تكريم مقدم من المنتدى الثقافي المصري

بإشراف الأستاذ د.عبدالعزيز حجازي

إعداد وتحرير د.محمد يوسف نجم

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

2022

الناشر:

دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع

ص.ب: 27280 - الصفاة

الرمز البريدي: 13133

الترقيم الدولي I.S.B.N:

978-99906-2-119-8

* لوحة الغلاف بريشة د.سعاد محمد الصباح

سعاد ... الإنسانة

عاشقة الوطن

مقدمة

عبد العزيز حجازي[1]

سعاد الصباح إنسانة رقيقة المشاعر، تحس بنبض الحياة حلوها ومرها، فتشدو شعراً ينبع من قلب مليء بالحب، وعقل يختزن علماً تنوعت أبعاده.

سعاد الصباح إنسانة تحب الناس وتتوقع دائماً أن يبادلها الناس هذه المشاعر بكل صدق وإخلاص، تفرح مع أفراحهم وتحزن مع أحزانهم، فتطلق الكلمات الصادقة تعبيراً عن هذه المشاعر.

سعاد الصباح إنسانة تعرف الوفاء لمن عايشوها أو تعاملوا معها، تبادلهم الثقة وتعطي من دون حدود فإن خانوا العهد فهي تسامح ولو كان ذلك على حسابها، فهي لا تحمل في صدرها إلا كل ما هو جميل، لأن الجمال عندها منحة ربانية أودعها الله سبحانه وتعالى في حواس البشر لكي يتمتعوا بها، فإن أصابها ضرر انطلقت تعاتب وتطلب المغفرة.

سعاد الصباح تحب الوطن وتفتديه بكل ما تملك من مال أو جاه أو تضحية، فإن أصابه مكروه انطلقت كالماء المتدفق تروي بشعرها ما يصيبها

1- اقتصادي مصري ورئيس وزراء أسبق في عهد الرئيس محمد أنور السادات. دكتوراه بالفلسفة في التجارة – جامعة برمنجهام – إنجلترا عام 1951. له عدة مؤلفات علمية، وحصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من وزارة الصناعة (مصر)، ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من وزارة الصحة، ووشاح النيل، ووشاح الملك عبدالعزيز من المملكة العربية السعودية، ونيشان إيران، وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى للثقافة، عام 1982.

من حزن عميق، تنقله إلى الناس كل الناس ليشاركوها هذا الأنين، وإن غابت عنه فهي في شوق دائم لتعود إلى أحضانه، لأنه يمثل منبع الحياة والخير والرخاء، تعترف له بأنه هو الذي يملأ الحياة سعادة ورفاهية، ويوفر لها الأمن والأمان.

سعاد الصباح شاعرة أحبها المثقفون لأنها تعبّر عن جيل الأصالة والمعاصرة، فهي تتحدث عن التراث باعتباره ثروة قومية، تعكس التاريخ العظيم لأمتها الإسلامية.. وهي في الوقت نفسه تنفتح على الحضارات والثقافات المعاصرة، تأخذ من رحيقها ما يتماشى مع المبادئ والأخلاقيات التي نشأت وربّيت عليها، فهي تلتزم الطريق المستقيم في الحياة، فترضي ذاتها وتؤكد عقيدتها الإسلامية.. فعندما تطلق شعرها عن المرأة فهي الواعية بما تملكه المرأة العربية من صفات، قد يعكس بعضها الانطواء والقهر والظلم من ناحية، ولكنها في الوقت نفسه تعطيها حقها في الحب والحياة والصدق والعطاء بلا خوف أو تردد.

وهي سعاد الصباح نفسها عندما تدخل إلى حياة السياسية، إذ تطلق أفكارها من واقع العلم والتجربة فتخاطب الحكام بما تحس به من آمال وآلام للناس جميعاً وبخاصة المحرومون منهم من نعم الحياة، فتقدم العطاء من دون حدود ودون مَنٍّ أو تعالٍ.

سعاد الصباح ارتبطت بأمتها العربية فقدمت شعراً وطنياً نابعاً من قلب يملؤه الزهو وعقل راجح لا يعرف إلا العدل والحق. أحبت مصر الحضارة والعلم والناس، وصدحت بأشعارها في محافلها ومهرجاناتها، فلما غابت عنها اشتاق إلى رؤيتها وسماع أشعارها محبوها وعشاق كلماتها التي تنبع من عقل واع وقلب صاف لا يحمل بين طياته إلا كل محبة وصدق..

وإن كنا نكرّم د.سعاد الصباح الكاتبة والأديبة والشاعرة، فإننا نكرم في شخصها الإنسانة القادرة على التعبير عن آمال الأمة العربية وآلامها، وتطلق العنان لطموحاتها وتطلعاتها بالكلمة الواعية الصادقة لترى شعباً عربياً قادراً على أن يعلو صوته مع الحق والعدل ويحتل مكانته بين شعوب العالم المتحضر، دون أن يفقد هويته أو يصير تابعاً لحضارة سلاحها المادة والمال وتضيع فيها القيم والأخلاقيات، لأنها مؤمنة بقول الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بالعلم والمال يبني الناس ملكهمُ
لم يُبْنَ ملك على جهل وإقلال

فهنيئاً للدكتورة سعاد الصباح هذا الفيض من كلمات أصدقائها ومحبيها وعشاق شعرها، يقدمون الكلمة الطيبة الصادقة تعبيراً عن وفائهم لها، وهي التي قدمت الكثير لبني وطنها ولأمتها، ولم تبخل على أحد بمال أو فكر أو حب، واليوم تنطلق الكلمات تبادلها الحب والاحترام والتقدير والإعزاز.

وختاماً، نضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يجزيها عما فعلت وقدمت من خير ويمنحها الصحة والعافية لتكون قمراً منيراً في عالم الأدب والشعر والسياسة والاقتصاد بل في كل ما يسمو بالإنسانية إلى أعلى مراتبها..

والله على كل شيء قدير.

سعاد الصباح.. الامتياز الإنساني

د.حسن الإبراهيم[1]

أن يعاني إنسان من أجل غيره وهو في عصمة من المعاناة.. هذا خيار صعب، وأن يكابد إنسان بسبب آلام الآخرين وهو في مأمن من كلفة المكابدة.. هذا خيار أصعب، ولا أجر عليه إلا الإحساس بالرضى عن النفس لأدائها فرضَ كفايةٍ يرتضي حمله المؤمنون بقضايا إنسانية عليا. ولقد كان من قدر الدكتورة سعاد الصباح أن تتقلب بين الصعب والأصعب للكشف عن كامل تميزها الإنساني. هذا شأو بعيد لا يبلغه إلا كل ذي حظ عظيم.

عندما كنت عميداً لكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية، التقيت سعاد الصباح لأول مرة -على الرغم من معرفتي بها عن بعد- وكانت يومذاك قد تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة بتخصص بعيد عن الشعر قريب من لغة الأرقام؛ علم الاقتصاد. أثناء اللقاء أبدت رغبتها في مواصلة دراساتها العليا كمعيدة في جامعة الكويت.. من أجل الحصول على درجة الدكتوراه.. وبما أنها كانت مؤهلة وتنطبق عليها شروط البعثة.. كان السؤال الذي طرحتُه عليها هو: لماذا تريد أن تنهج الطريق الأكاديمي الشاق وهي ليست بحاجة له لا من نواحيه

1- وزير سابق وأكاديمي. بكالوريوس أنظمة حكومات من الولايات المتحدة، ودكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة أندايانا بالولايات المتحدة. عمل أستاذاً في قسم العلوم السياسية في جامعة الكويت، ثم عميداً لكلية التجارة (1972 - 1980) ثم مديراً للجامعة عام (1976 - 1980)، ووزير التربية في 1985م. رئيس الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة. وعضو مركز دراسات الوحدة العربية. له إسهامات حديثة في مجال التربية العربية. وله عدة مؤلفات منها: قضايا معاصرة في السياسة الدولية، الدول الصغيرة والنظام الدولي، وجهاً لوجه.

المادية ولا الاجتماعية؟! وكانت في ذلك الوقت بدأت تشق طريقها شاعرةً لها معجبوها ومريدوها..

فكان جوابها الذي كشف لي بعدها الإنساني: إنني أريد أن أنخرط في مهنة التدريس لأنني أريد أن أرى من خلال طلابي ابني البكر مبارك الذي انتقل إلى رحمة الله وهو لم يتجاوز السنة الثانية عشرة يومها.

وجدت في سعاد نقطة التقاء مشتركة بيننا.. فلقد كنت من المؤمنين أن لا مستقبل للأمة العربية إلا عن طريق النهوض والاهتمام بالمرأة والطفل. في تلك اللحظة أحسست بأن شراكة وجدانية وإنسانية قد ربطتني بهذه السيدة.

الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة:

وقد ازدادت تلك الرابطة تأصلاً وعمقاً مع مرور الأيام، ثم جاء تأسيس الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية عام 1980 ليوفر إطاراً مؤسسياً لهذه النظرة المستقبلية..

حمل المشروع الأول الذي قدمت له الدكتورة سعاد الدعم المالي اسم ابنها البكر المرحوم الشيخ مبارك العبدالله الصباح للدراسات الموسمية. كان المشروع يهدف إلى تشجيع الباحثين في جميع أرجاء العالم العربي على البحث في موضوعات ذات طبيعة ملحّة في مشكلات الطفولة العربية واقتراح العلاج لها. وتم الإعلان عن المشروع في الصحف والمجلات العلمية العربية، وكانت هذه المرة الأولى في العالم العربي التي تدعو فيها مؤسسة بحثية الباحثين العرب لتقديم مشروعاتهم البحثية، حيث تتولى دراستها لجنة متخصصة في الجمعية، وبعد الموافقة عليها تقدم الجمعية الدعم المالي للباحث. وكانت ردود الفعل لدى الباحثين العرب تتسم بالاستحسان

والاستغراب في آن واحد. وكان ذلك مؤشراً على ندرة وجود المؤسسات البحثية الداعمة للبحث في العالم العربي.. وقد كانت الدكتورة سعاد الصباح رائدة في هذا الحقل.

نُفّذ المشروع على مرحلتين، بدأت المرحلة الأولى عام 1985 واستمرت حتى 1990، أما المرحلة الثانية فبدأت عام 1990 وامتدت حتى 1996. ولقد أصدرت الجمعية في إطار هذه السلسلة ستاً وعشرين دراسة عالجت ستاً وعشرين قضية حيوية من قضايا الطفولة على نطاق العالم العربي، وكان ذلك فتحاً جديداً حقاً (راجع الملحق 1).

كان اهتمام الجمعية بأدبيات الأطفال في العالم العربي قد بدأ منذ تأسيسها عام 1980، حين بادرت إلى تمويل أول دراسة عن أدبيات الأطفال مقدمة من الأستاذة الدكتورة جولیندا أبو النصر في كلية بيروت الجامعية. وكان من أهم نتائج تلك الدراسة المسحية التي استغرقت حوالي أربع سنوات أن العالم العربي يعاني من نقص كبير في كتب الأطفال وفي المكتبات المتخصصة في أدبيات الأطفال.. وكانت أهم توصيات تلك الدراسة القيمة الاهتمام بالكتّاب والرسامين وتشجيعهم على الإقبال على مهنة الكتابة والرسم للأطفال.

طرحت هذا الموضوع على الدكتورة سعاد الصباح، ومرة أخرى لم أجد حاجة ملحة للإقناع.. فلقد تحمست وأبدت استعدادها لتمويل المشروع..

بدأ العمل في المشروع عام 1989، وتوقف قسراً أثناء الغزو العراقي للكويت. ثم صدر الكتاب الأول عام 1992، وقد أثمر المشروع عشرين كتاباً موجهاً للأطفال من ذوي الفئات العمرية المختلفة، وتناولت هذه الكتب

موضوعـات شـتى، في مجـال البيئـة والهويـة والانتـماء والصداقـة واحـترام الآخريـن وتفنيـد المعتقدات الخرافيـة والألوان وكيفية خلطهـا وحياة النحل.. ومـا إلى ذلـك مـن موضوعـات مختلفـة (راجـع الملحق 2).

جاء الغزو العراقي للكويت عام 1990 ليمثل انتكاسة وطعنة في الصميم للجمعية وأعضائها الذين آمنوا بمستقبل الأمة العربية وبذلوا الجهد في الاضطلاع بمسؤولياتهم نحو أطفال الأمة ومستقبلهم. وكان نصيب الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية -مثل كل المؤسسات الكويتية الأخرى الرسمية منها والخاصة- التدمير والنهب. وكانت سعاد الصباح من أكثر المتألمين والمعانين.. كانت عروبية التفكير والممارسة، وضحّت من أجل ذلك بالكثير، وتعرضت للكثير من التجريح والانتقاد بسبب ذلك.. ولكنها لم تفقد إيمانها بمستقبل هذه الأمة.. ولما وصفت لها وضع الجمعية بعد التحرير أبدت استعدادها لتمويل إعادة البناء والتأهيل، وأكدت أهمية مواصلة الجمعية حمل رسالتها والاضطلاع بمسؤولياتها تجاه الطفولة العربية، وفعلاً وبدعم قوي منها بدأنا عملية إعادة البناء والتأهيل.

مشروع الشيخ عبدالله المبارك الصباح:

(الأوضـاع التربويـة والتعليميـة والنفسـية لأطفـال الكويـت في فـترة مـا بعد التحرير)

لم تكتـف الدكتورة سـعاد بإعادة بنـاء مبنى الجمعية وتأهيلـه للعمل، وإنما كانـت مشـغولة ومهمومـة بأوضـاع أطفـال الكويـت وتأثـير الغـزو والاحتلال عليهـم، فقامـت بتمويـل مـشروع يحمـل اسـم زوجهـا المغفـور له بـإذن الله عبداللـه المبـارك الصبـاح الـذي انتقـل إلى رحمـة اللـه بعـد بضعـة أشـهر من

تحرير الكويت، وكانت إرادة الله أن تقر عينه برؤية بلاده محررة قبل انتقاله إلى جوار ربه.

ارتأت الجمعية في موضع اهتمامها المعهود بقضايا الطفل والمجتمع أن تقوم بعمل ريادي في مواجهة الآثار النفسية التي نجمت عن الصدمات العديدة التي أصابت مجتمعنا. جاء هذا المشروع ليملأ الفراغ باتجاه خدمات عديدة ومتشعبة تهدف إلى التعريف بالآثار النفسية الناجمة عن الحرب ورد فعل الأطفال للصدمات النفسية. وكان من أولويات المشروع:

- الإسهام العملي في حملات التنوير والتوعية للرأي العام عبر وسائل الإعلام العديدة والمختلفة.
- تنظيم سلسلة من المحاضرات التنويرية لأولياء الأمور بخصوص الأزمات النفسية الناجمة عن الحرب وكيفية التعامل معها.
- الإعداد لخمس دورات تدريبية متخصصة في قضايا الأطفال والحرب والآثار النفسية الناجمة عنها وكيفية الكشف عنها ووضع الخطط العلاجية لها.
- تشجيع وتمويل المسوحات البحثية لآثار الاحتلال والحرب على أطفال الكويت من النواحي الصحية والنفسية والاجتماعية. وفي إطار هذا المشروع تم إنجاز الدراسات التالية:

أ. أساليب مساعدة الأطفال والمراهقين المتأثرين بالأزمة والحرب: دليل الوالدين والمدرسين، عام 1991.

ب. التربية ومستقبل الكويت.. لكيلا تكون المحنة درساً مهملاً والمستقبل فرصة ضائعة أخرى - نداء إلى الشعب الكويتي، عام 1992.

ت. نحو خطاب تربوي جديد للطفل في الكويت والبلاد العربية، عام 1993.

ث. تأثير الاحتلال العراقي على النمو النفسي والاجتماعي لأطفال الكويت (باللغتين العربية والإنجليزية)، عام 1993.

ج. دراسة مسحية حول الأوضاع التربوية والتعليمية في فترة ما بعد التحرير بدولة الكويت، عام 1993.

ح. دراسة ميدانية عن الرضى الوظيفي للعاملين في وزارة التربية بدولة الكويت، عام 1994.

خ. مقياس الرضى الوظيفي للعاملين في التعليم (كتيب التعليمات)، عام 1994.

د. تأثير المدى البعيد لأزمة الخليج على أطفال الكويت وذوي أمورهم، عام 1994.

ذ. الأطفال والحرب في الشرق الأوسط: تأثير الحرب على الأطفال في الكويت ولبنان، عام 1994.

ر. السقطة والقيامة – الكويت والتربية.. من الاستقلال إلى الاحتلال وما بعدهما (التقرير النهائي للمشروع)، عام 1994.

إن عمق الشعور الإنساني والمسؤولية الاجتماعية الذي يميز سعاد الصباح لا يقتصر على دعمها لمشروعات الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، وإنما يمتد إلى جميع أنحاء الوطن العربي، ليصبح جزءاً من حياتها اليومية.. تتألم وتعاني بصمت حيال تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية لأمتها، وتدفع ثمناً لذلك من صحتها جراء التزامها الفكري ومسؤولياتها تجاهها.. إنها حقاً امرأة العصر العربية، وهي مثال ساطع على كل ما تحمل هذه الكلمة من معان. مثال جدير بالدراسة ليكون أسوة تحتذى، وما أحوجنا لمثل هذه الأسوة في وقتنا الحاضر..

الملحق رقم 1

مشروع لرعاية الأطفال المتفوقين في الكويت	الكويت	1985
واقع الطفل الكويتي فيما قبل المدرسة الابتدائية	الكويت	1986
الثروة اللغوية عند الأطفال العرب ورعايتها	العراق	1987
في اضطرابات النطق عند الأطفال	الأردن	1987
التعليم في اليابان (مترجم)	الكويت	1987
واقع رياض الأطفال في الأردن	الأردن	1987
اللعب الشعبي عند الأطفال ودلالاته التربوية	الأردن	1988
النمو اللغوي لأطفال مرحلة الرضاعة	السعودية	1988
تنمية ثقافة الطفل العربي	سوريا	1989
الطفولة والإبداع (5 أجزاء)	مصر	1989
الحصيلة اللغوية المنطوقة لطفل ما قبل المدرسة من عمر عام حتى ستة أعوام	مصر	1989
التمثيل الدلالي لأفعال تحويل الملكية عند الطفل	المغرب	1989
تقدير الذات وعلاقته ببعض المتغيرات البيئية والشخصية لدى عينة من أطفال صنعاء	اليمن	1990
جيل الانتفاضة (باللغتين العربية والفرنسية)	فلسطين	1990
تغذية الطفل في الخليج العربي	البحرين	1990
تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل الدراسة	سوريا	1991
لماذا لا يتعلم طفلي؟ الطفل العاجز عن التعلم في المنزل والمدرسة (مترجم)	الكويت	1992
منذ نعومة أظفارهم: أدب الأطفال العربي الحديث في القرن العشرين	الكويت	1992
المشكل التربوي والثروة الصامتة: دراسة في سوسيولوجيا الثقافة	الكويت	1993
تنمية التفكير النقدي (مترجم)	الكويت	1993
الطفل والمجتمع: دراسات في التنشئة الاجتماعية	الكويت	1993
أزمات الحقيقة والحرية في التربية المعاصرة	العراق	1994
الرضاعة الطبيعية وخصوبة المرأة في البحرين	البحرين	1994
مسرح العرائس	السعودية	1994

نظريات النمو (مترجم)	الكويت	1996
مرشد الوالدين في اضطراب قصور الانتباه مفرط النشاط (مترجم)	الكويت	1996

الملحق رقم 2

مذكرات فطومة الكويتية الصغيرة	الكويت	1992
جدي صالح وأيام الغوص	الكويت	1993
عفاريت من صنع البشر	مصر	1993
سفينة نوح	لبنان	1993
الراحة الغربية	الكويت	1993
حديث الزهور	مصر	1993
حبات الذهب	سوريا	1994
القرد بهلوان والفأرتان	لبنان	1994
يا لروعة الألوان	لبنان	1994
في محل الألعاب	سوريا	1994
حبة الفلفل	الأردن	1994
مصادر الغذاء.. مخلفات اليوم	مصر	1994
قصر المرمر	سوريا	1994
خضرة	مصر	1995
رحلة ممتعة	سوريا	1995
الغراب غاق	سوريا	1995
رفيق اللعب	لبنان	1995
جدتي دلال والألعاب	الكويت	1995
تمثيلية.. تمثيلية	سوريا	1995
الحية هندومة	لبنان	1995

سعاد الصباح.. الإنسانة
ورحلتها مع حقوق الإنسان في الوطن العربي

فاروق أبو عيسى[1]

سعاد الصباح عصفورة رقيقة من الكويت، حلقت في سماء وطنها، الممتد من الخليج إلى المحيط، فاحتوت بروحها الوثابة وأشواقها المتطلعة للحرية هموم الإنسان العربي، وانشغلت بقضاياه، وتمثلت أحزانه ومعاناته، وصاغت مفهومها الخاص لتلك الأمور، وعبّرت عنها بوسائل مختلفة، منها ما هو فكري وأدبي كشاعرة مبدعة وكاتبة، ومنها ما هو عملي بانخراطها في حقل الدفاع عن حقوق الإنسان وتعزيز حرياته الأساسية، وبنضالها المتواصل من أجل تعميق التطور الديمقراطي وبناء مؤسسات المجتمع المدني، والسعي أيضاً لبلورة حركة إصلاح سياسية واجتماعية، تلعب فيها المرأة العربية دوراً أساسياً يدعم عملية التحديث والتنمية وبناء المستقبل العربي على ركائز العلم والتكنولوجيا والديمقراطية وسيادة القانون.

"وارتبطت رحلة سعاد الصباح مع حقوق الإنسان بأكثر من رافد، فقد تشكلت البدايات مع مرحلة التحصيل العلمي، حيث تلقت علومها في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة على أيدي أساطين العلوم السياسية والقانونية والاقتصادية، أمثال الدكتور زكي شافعي والدكتور حامد ربيع والدكتور بطرس غالي وغيرهم من علمائنا العرب الأفذاذ.. الذين

1- سياسي وقانوني سوداني. ليسانس حقوق – جامعة الإسكندرية. تولى عدة مناصب وزارية منها وزارة الخارجية. فاز بمنصب الأمين العام لاتحاد المحامين العرب في ديسمبر 1983. عضو البرلمان السوداني 2005.

غرسوا في نفسها قيماً جميلة قوامها أن هدف الاقتصاد في نهاية الأمر هو رفاهية الإنسان وحقه في حياة كريمة".

وجاء اشتراكها مع نخبة من المفكرين وقادة الرأي في الوطن العربي -كان لي شرف الإسهام معهم- في ندوة الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي (ليماسول / قبرص في أواخر عام 1983) التي تحولت عملاً إلى مؤتمر تأسيس للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، جاء ليضيف بعداً جديداً مهماً لاهتماماتها ولعطائها الكثير لوطنها ولمواطنيها.

وكان من حسن الحظ أن أتعرف على الإنسانة سعاد الصباح، خلال مسيرتنا المشتركة منذ تأسيس -وخلال عملية بناء- المنظمة العربية لحقوق الإنسان، بل وتزاملنا سوياً في عضوية مجلس أمنائها ولجنتها التنفيذية منذ عام 1983 وحتى شهر أكتوبر عام 2000، حيث آثرت الصديقة العزيزة أن تتخلى عن مواقعها القيادية ليبقى دعمها المتواصل للمنظمة العربية مادياً ومعنوياً، دليلاً على نبل وأصالة موقفها وعمق التزامها دفاعاً عن حقوق الإنسان العربي وهمومه وطموحاته. وأشهد لها أنها كانت خلال تلك الفترة الأكثر عطاء على كافة المستويات معنوياً ومادياً، وأن دعمها المادي الكبير للمنظمة العربية قد ساعدها على أن تواصل مسيرتها بشموخ واستقلالية، وأن تؤدي دورها المرموق دون تعثر أو توقف حتى الآن، ولم تبخل في أي مرحلة تعرضت فيها المنظمة لصعوبات مادية، بأي مال أو جهد من أجل مساعدتها على تخطي العقبات.

بل وامتد نشاطها لدعم المنظمات الوطنية لحقوق الإنسان مادياً في العديد من الأقطار العربية، ومن بينها المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، وأيضاً في وطني السودان، حيث سافرت بطائرتها الخاصة ومعها العديد من قادة الفكر والسياسة العرب لتبارك للشعب السوداني على انتفاضته الشجاعة

مـن أجـل الديمقراطيـة في أبريـل عـام 1985، وهناك أنشـدت قصائدهـا التي تمجـد الحريـة وتعـلي رايـات حقـوق الإنسـان، في أمسـية حاشـدة في جامعـة الخرطـوم مـا زالت تتذكرهـا منتديات الخرطـوم الثقافية والسياسـية، ويتغنى بهـا الآلاف مـن البنـات والبنـين والشـيوخ والشـباب مـن أهلنـا هنـاك، الذين عندمـا فاضـت بهـم سـاحات نـادي أسـاتذة الجامعـة المتعـددة اعتلـوا قمـم أشـجار النـادي ليتابعوا شـدو القيثـارة العربية.

وهنـاك في الخرطـوم قدمـت أيضـاً دعمهـا المـادي اللامحـدود للفاعليـات المدنيـة والأهليـة السـودانية، وعـلى رأسـها الاتحـاد النسـائي واتحـاد الكتّـاب والمنظمـة السـودانية لحقـوق الإنسـانية وكليـة الأحفـاد للبنـات وغيرهـا.

ويعنينـي في هـذا أن أنـوه بـأن دعمهـا المتواصل لمؤسسـات المجتمـع المدني العـربي لم يكـن ينطلـق مـن مجـرد الرغبـة في فعل الخـير بقدر مـا ينطلق من إدراك عميـق بـأن التطـور والإصـلاح المتـوازن والتنميـة الاجتماعيـة التـي تتم في كل قطـر عـربي هـي مسـؤولية المثقفـين والعاملـين والقادرين العـرب، وأن كل هـذا جهـد وطنـي سـوف يصـب في النهايـة في تطويـر واقع عربيـة أرحب تظللـه رايات الحريـة والديمقراطيـة والتقدم.

ولعـلّي لا أتجـاوز حينـما أقـول إن عصفـورة الخليـج هـي ظاهـرة نـادرة سـبقت عصرهـا وظـروف واقعها فارتفعـت قاعدتهـا وانطلقت تجـاه المبادرة والفعـل واقتحـام الصعـاب.. وهـي بمـا لهـا مـن مكانـة وثـراء كان يكفيهـا أن تشـتغل بذاتهـا وبخصوصياتهـا وبترف الحيـاة ومتعها، ولكنها آثـرت أن تجعل تـاج العطـاء والبـذل والمشـاركة هـو الـذي يكلـل هامتهـا الشـامخة ويسـبغ عـلى عملهـا مكانـة أكـبر في قلـوب عارفيهـا وأصدقائهـا مـن المثقفـين العـرب وهـم كـثر، وبـين جموع المواطنـين الطيبـين في أقطارنا العربية مـن مغربها إلى

مشرقها.

وهنا أضيف إلى ما سبق بعداً آخر يمثل امتداداً وعمقاً لمفهومها لقضايا الوطن وأوضاع حقوق الإنسان، وهو البعد التنويري والتوعوي ومواجهة الأفكار الجامدة والمتطرفة، وذلك بتركيزها على إعادة نشر بعض من كنوز الثقافة العربية، وعلى رأسها مجموعة مجلدات مجلة "الرسالة" المصرية التي كان يصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات، والتي مثلت لأجيالنا نبعاً غنياً للمعرفة والثقافة والأدب، وكذا تأسيسها لدار نشر كبيرة أصدرت مئات الكتب، ومثلت وما تزال رافداً أساسياً في تعزيز الثقافة العربية وحماية الهوية العربية، هذا فضلاً عن كتبها المهمة حول حقوق الإنسان المعاصر والوطن العربي التي عالجت فيها موضوعات حقوق الإنسان في الإسلام والفكر السياسي الحديث.

هذا إلى جانب مشاركتها في المحافل الدولية المعنية بحقوق الإنسان، فقد ترأست وفد المنظمة العربية لحقوق الإنسان في مؤتمر الأمم المتحدة العالمي حول المرأة من منظور حقوق الإنسان والشعوب، وبخاصة ما يتعلق بحقوق المرأة في مناطق الصراعات، وبالذات في فلسطين المحتلة.

ولم تغب قضايا الطفولة عن اهتمام الدكتورة سعاد الصباح، فقد شاركت في تأسيس "الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة"، وأخذت مكانها اللائق في مجلس أمنائها الأول، وغيرها من الأنشطة ذات الصلة بحقوق المرأة والطفل.. إلخ.

وأخلص في ختام شهادتي إلى أن شخصية الدكتورة سعاد وإسهاماتها المختلفة في قضايا وهموم وطنها تتسع وتتعدد، وأعجز عن الإحاطة بكل جوانبها، فهي غنية وثرية إنسانياً وبلا حدود.

أتمنى "لبنت الكويت" وأسرتها دوام الصحة والسعادة، وأن تواصل مسيرتها وهي أكثر تحليقاً في سماء الحلم العربي وأكثر ارتباطاً بقضايا واقعنا الصعب تغنّي دوماً للحرية، وتدعو باستمرار للعمل والمبادرة والعطاء، حتى يتحقق الوفاق والوئام بين أبناء وطننا العربي وتتعزز رايات حقوق الإنسان وتشيع روح العدل والإنصاف في ربوع حياتنا العربية.

سعاد الصباح.. سيدة المبادرات

طلال أبو غزالة[1]

تبدو لي الكتابة عن الدكتورة سعاد الصباح أمراً سهلاً وصعباً في آن واحد. إن سهولة الأمر تنبع من كونها سيدة عربية استثنائية، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان إنسانية تتشكل بفضل أبعاد شخصيتها متنوعة المواهب والعطاءات، فالدكتورة سعاد الصباح التي تفضل اسمها الأمومي "أم مبارك"، ذات شخصية متميزة بتعدد آفاقها. هي شاعرة أولاً ثم هي سيدة أعمال، وسياسية، وباحثة اقتصادية، وهي بذلك وقبله ركن أساس في حركة تحرير الإنسان العربي لإيمانها بتحرير المرأة العربية، فضلاً عن جهاد دؤوب من أجل غاية نبيلة تتمثل في حرب شديدة تخوضها مع آخرين لتأكيد حقوق الإنسان العربي في وجه التسلط والطغيان والتهميش.

وإذا كنا قد ترافقنا في نشاطات منتدى الفكر العربي، وقد كانت فيه عنصراً مؤسساً وفعالاً، فإن حيويتها الثقافية والفكرية قد تعدت ذلك

1- ولد في يافا - فلسطين 1938 – حاصل على الجنسية الأردنية. بكالوريوس إدارة أعمال – الجامعة الامريكية – بيروت – لبنان 1960. دكتوراه فخرية في الإدارة والاقتصاد، جامعة جرش، الأردن- 2016. دكتوراه فخرية في إدارة الأعمال، جامعة مؤتة، الأردن – 2015. الدكتوراه الفخرية في العلوم الإنسانية، جامعة بيت لحم، فلسطين – 2014. دكتوراه فخرية في الآداب جامعة كانسيوس – نيويورك 1988. عضو مجلس الأعيان الأردني، حاصل على وسام الاستقلال الأردني من الملك عبدالله الثاني 2016، ووسام الإبداع التقني والتحول الرقمي – البحرين 2016، وجائزة الأوسكار التعليمي من مركز تنمية الموارد البشرية للتدريب في دبي بالإمارات العربية المتحدة 2020. مؤسس ورئيس مجموعة طلال أبو غزالة الدولية، وهي مجموعة شركات عالمية تقدم الخدمات المهنية في مجالات المحاسبة والاستشارات الإدارية. لقب بقائد المحاسبة العربية اعترافاً بفضله في الترويج لأهمية الملكية الفكرية في المنطقة العربية.

الإطار إلى مجموعة من المؤسسات، في طليعتها المنظمة العربية لحقوق الإنسان. هذه المنظمة التي لولا سعاد الصباح لما وجدت، أو في أفضل حالات التفاؤل، لكان وجودها قد تأخر سنوات وسنوات. لقد راقبنا جميعاً كيف تمت ولادة هذه المنظمة التي رفضت جميع الدول العربية آنذاك عقد الاجتماع التأسيسي الأول فيها، على الرغم من الجهود التي بذلها مؤسسوها ودعاتها لعقد ذاك الاجتماع.

وشأن كل إنجاز جليل كان لا بد للمنظمة من ميزانية تعين على قيامها وانطلاق فاعليتها الضخمة. هنا، والقول للأستاذ الدكتور ميلاد حنا في جريدة الحياة، تبرعت الدكتورة سعاد الصباح بمبلغ مليوني دولار أمريكي لتحقيق هذا الغرض النبيل. ولا تكتم أوساط تعرف ما يدور بين جدران المنظمة العربية لحقوق الإنسان، اعترافاً دائماً بفضلها في توفير المقر الدائم للمنظمة والإسهام في إنقاذ ميزانيتها المتعثرة.

مثل هذا الدور الخلّاق لم ينحصر في عطائها الظاهر للعيان، بل يتجاوزه إلى مشاركة صادقة وأمينة في العديد من الأنشطة الثقافية والإنسانية، ليس أقله ما أعرفه عبر سنوات العمر في الكويت الحبيبة، من مبادرات خيّرة مشهود لها في توفير التعليم الجامعي لمئات الطلبة العرب، من مختلف الجنسيات ومن جميع المذاهب. إن مئات الخريجين العرب مدينون لسعاد الصباح بحصولهم على الشهادات الجامعية وتأهيلهم وتهيئتهم لبناء حياة أسرهم ومجتمعاتهم. وما أقوله عن يقين في هذا الجانب، ينطبق أيضاً على عون مستمر تقدمه مبرة المغفور له زوجها الراحل الشيخ عبد الله مبارك الصباح، تحت رئاستها، من مساعدات لعلاج المرضى وإقامة المساجد ومراكز التعليم الديني في الكويت وخارجها.

لقد عرفت سعاد الصباح لزمن طويل، وعلى امتداد عشرات السنين، بأنها صاحبة الهامة السامية في علاقاتها بالآخرين، سمو إيمانها وأهدافها النبيلة. وما قدمت سعاد الصباح للثورة الفلسطينية منذ بدايتها وحتى يومنا هذا مادياً ومعنوياً إنما هو مشاركة حقيقية في شد أزرها، ودعم صادق لحقوق الشعب الفلسطيني، وذلك عبر عضويتها في "مؤسسة التعاون" وعبر المؤسسات العاملة في الأراضي المحتلة لغرض الإنماء وصيانة التراث والوجود الحضاري.

هذه مواقف أذكرها للتاريخ، وهي تشهد لها بالتميز والارتقاء فوق أية ادعاءات ضيقة المنبت والأفق.

أشعر اليوم أن تكريم هذه السيدة النبيلة قد تأخر، فهي تستحق التكريم ومنذ زمن، وسوف تظل مبادرة المنتدى الثقافي المصري ورئيسه دولة الأخ الكبير الدكتور عبد العزيز حجازي محل إكبار لدى كل من يعرف قدر المبدعين الذين تعتبر سعاد الصباح في طليعة موكبهم الواعد.

الكم.. لكن لا على حساب الكيف

إسماعيل فهد إسماعيل[1]

وأنت تتصدى للكتابة عن الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح تنتابك حيرة من نوع خاص تتمثل في السؤال: "من أين أبدأ؟!"، يلحق به آخر هو: "هل أوفق إلى إيفاء الموضوع حقه؟!".. إذ إن "سعاد الصباح" -حين تقاس بنشاطاتها وإبداعاتها واهتماماتها غير المحدودة- تبدو كما لو أنها حشد من النساء أو الرجال.. لا فرق.

تفتحت موهبتها الشعرية في سن الصبا، ثم اقترنت -وهي في الثامنة عشرة- بالشيخ عبدالله مبارك الصباح، نائب حاكم الكويت، والقائد العام للجيش والقوات المسلحة عام 1960.

مهامها كزوجة وأم، إضافة إلى ما يقتضيه دورها السياسي والاجتماعي والبروتوكولي، بصفتها زوجة نائب الحاكم (أيامها).. كل ذلك لم يحدّ من طموحها كي تحقق ذاتها شاعرة كويتية عربية متميزة، فأقدمت على نشر ديوانها الشعري الأول "ومضات باكرة" عام 1961، أعقبته بديوان ثانٍ "لحظات من عمري" في السنة نفسها.

في خضم مسؤولياتها تلك لازمها تطلعها الآخر، وهو أن تنجز تعليمها

1- كاتب وروائي كويتي متفرغ منذ عام 1985. حصل على بكالوريوس أدب ونقد من المعهد العالي للفنون المسرحية - دولة الكويت. عمل في مجال التدريس وإدارة الوسائل التعليمية، وأدار شركة للإنتاج الفني. جائزة الدولة التشجيعية في مجال الرواية عام 1989. جائزة الدولة التشجيعية في مجال الدراسات النقدية عام 2002.

العـالي، في تخصـص علمـي لا يـكاد يمت لموهبتهـا الإبداعية بصلـة، إذ اتجهت إلى دراسـة الاقتصـاد السـياسي في جامعـة القاهـرة، لتواصلهـا فيـما بعـد في جامعـة سـاري جلفـورد البريطانيـة، حيـث حصلـت عـلى شـهادة الدكتـوراه عـن أطروحتهـا "التخطيـط والتنميـة في الاقتصـاد الكويتـي ودور المـرأة فيه"، وكان أن أنجـزت سـعاد الصبـاح خمسـة كتب مهمة في ميـدان تخصصها ذاك، لتتحـول كتبهـا تلـك إلى مراجـع يعتمـد عليهـا العلماء والمسـؤولون.

وإذا تذكرنـا أن بلداننـا العربيـة كافـة مـا تـزال تعتـبر في عـداد دول العـالم الثالـث، حيـث لا قوانـين وضعيـة ترعـى قضايا الحريـة والديمقراطيـة، ناهيك عـن مبـادئ حقـوق الإنسـان عامـة، لا يسـعنا إلا أن نشـيد بمبـادرات سـعاد الصبـاح التـي كانـت في طليعـة المناضلـين في هـذه الميادين، فهـي إلى جانـب كونهـا لم تبخـل بوقتهـا وجهدهـا ومالهـا، لـترأس أو لتشـارك في العـشرات من اللجـان والمنتديـات والمؤتمـرات، قدمـت للقـارئ العـربي زهـاء أربعـة كتـب تتنـاول قضايـا الحريـة وحقـوق الإنسـان.

وفي خضـم مهامها أو اهتماماتهـا تلـك لم يغـب عـن ذهنهـا الـدور الأسـاس الـذي يلعبـه الفكـر - الثقافـة - العلـم في نهضـة الشـعوب، ولـذا بـادرت إلى إنشـاء دار نـشر كانـت الأولى من نوعهـا في العالم العربي، وشـكلت لها مجلس أمنـاء يضـم مجموعـة مختـارة مـن القيـادات الثقافيـة والعلميـة في عالمنـا العـربي، وخصصـت لهـا مـن مالهـا وجهدها مـا يضمن لهـا النجـاح والازدهار.

كذلـك كانـت لهـا مبـادرات مشـكورة في تكريـم عـدد مـن أعـلام الأدبـاء والمفكريـن الأحيـاء بإصـدار كتب عنهم، وفي تشـجيع الأدباء والعلماء الشـبان عـلى الإبـداع والبحـث والتأليـف، وذلـك برصـد الجوائز السـنوية، التـي تقدم لهـم باسـمها واسـم المغفـور لـه زوجها.

هـذه الانشـغالات مجتمعـة لم تـصرف سـعاد الصبـاح عـن غوايتهـا الأولى "الشـعر"، حيـث بلـغ عـدد دواوينهـا (ثلاثـة عـشر) حتـى الآن.

ولا بـد لي مـن التأكيـد هنـا عـلى أن الزيـادة الكميـة للدواويـن لم تكن على حسـاب الكيف، إذ إن شـمولية خبرتها وتنوع مصادر ثقافتها الذاتية سـاعداها عـلى أن ترتقـي بشـعرها أكـثر فأكـثر، لتتبـوأ مكانـة طليعيـة بـين الشـعراء العـرب المعاصريـن، آخـذة مـن ثـورة الشـعر الحديث عـلى العمـود المتوارث جوانبهـا الإيجابيـة، دونمـا إيغـال تجريبـي -بقصـد التجريـب- تجـاه قصيـدة النـثر، مضمنـة موقفهـا المتمـرد عـلى التخلـف والاسـتغلال، مهمومـة بالقضايا المصيريـة لوطنهـا، الأمـر الـذي لفـت انتبـاه دارسي الأدب العـربي المعاصر من الأجانـب، فأقبلـوا عـلى ترجمـة شـعرها إلى العديـد مـن اللغـات الحية.

.. من رسالة خاصة جداً

نضال الأشقر[1]

عزيزتي سعاد..

عشرون سنة ونيف مضت على لقائنا الأول. كنتُ أقرأ الشعر في أمسية لندنية، وكنتِ هناك مهرة تشع عيناها بحزن الأعماق ووشاية لفرح لا يكاد يكتمل.

وحيدةً بين الجمهرة المستمعة بدوت لي، وإن كان كل من حولك يقترب منك أو يحاول. ولد لي في لحظتها حلم علاقة مودة واحترام وإعجاب متبادل، ما لبثت الأيام أن زادته وضوحاً ليصبح حقيقة.

حيثما ذهبت كنت أراك أو أسمع عنك كل ما تحمله طيور الخير، محدّثة في صدق رائع عن سجايا في سعاد الصباح لم تتوافر لغيرها، ولو تماثلت مع العديد من رموزنا: قيماً في ذروتها الوفاء وعطاء في حدوده الدنيا غريب على مجتمعاتنا العابقة بالبشاعة. لقد جسدت المرأة العربية الحقيقية: تكافح وهي في غنى عن الكفاح، تقاتل، ولو شاءت لنعمت من دنياها بسلام مطلق ونعيم دائم. في تجسيدك للمرأة العربية الباسلة بقيت سيفاً

1- فنانة مسرحية لبنانية لعبت في الستينات والسبعينات دوراً أساسياً في تحريك الفن المسرحي اللبناني والعربي في محاولة لتحديثها وتجديد تعبيراتها ولغتها وأدواتها. أسست مع مجموعة من الفنانين اللبنانيين "محترف بيروت للمسرح"، ومع فنانين عرب أسست فرقة "الممثلون العرب" التي جالت في عروضها مختلف البلاد العربية والأوروبية. في 25 يوليو 2020 م تم اختيارها عضواً في مجلس إدارة هيئة المسرح والفنون الأدائية التابع لوزارة الثقافة في السعودية.

مشـدود القامـة، كـما أنـت تمامـاً حـين تقفين عـلى منـبر الكلمة: شـاعرة آسرة ببحـة الصـوت، وبالجمال النبيـل في تجلياته العليا. حيث أذهـب تتغير الدنيا، ويـا لكـثرة مـا أسـافر! الأشـجار تتغـير، الشـوارع تتغير، تخلـع المـدن أغطيتها، تبـدل الأحصنـة صهيلهـا، إلا أنت، الفـرس العربية التي لا يتبـدل فيها الصوت، ولا تشـيخ الصـورة، بـل يـزداد كل منهما عمقـاً وأصالة.

مـن السـهل أن أقـول فيـك كل مـا يعرفـه عنـك المحبـون والمؤمنون برسـالة الحيـاة العظيمـة، ولكنـك تسـتحقين أن يقـال فيـك الكثـير الكثـير وفـاء لمـا أعطيـت لعالمنـا العـربي مـن إبداعـات في الشـعر والنـثر ومـن رعايـة لمسـيرة الثقافـة ورموزهـا وعناوينهـا.

ينـدر أن نجـد منتـدى ثقافيـاً أو مثقفـاً اتصـل بـك دون أن تكـون كفـك المليئـة ببخـور المحبـة قـد مـرت فـوق جبينـه ومسـحت عنـه الحـزن الـذي يذبـح المبدعـين.

أنـتِ.. أيتهـا المـرأة العربيـة التـي تمـضي السـنون ولا أراك.. تسـتحقين منـي التوقـف لحظـة أمـام الحـق، لأقـول فيـك كلمـة حـق، أنـت واللـه المسـتحقة لهـا، لأقـول فيـك ولـك إن الزمـن مـع سـعاد الصبـاح هـو زمـن آخر أكـثر بهاء وجـمالاً ونبلاً.

سلام لك، وباقة ورد برّي من جبال لبنان العالية مثل جبينك.

وأضحك من كل ما قيل عنك
وأرفض أفكار عصر التنك
ومنطق عصر التنك
وأبقى على قمتك العاليةْ

وأعرف أن الرعود ستمضي
وأن الزوابع تمضي
وأن الخفافيش تمضي
وأعرف أنهم زائلون
وأني أنا الباقيةْ..

سعاد الصباح..
بين الأجمل والأقسى في مكنون العرب

د. محمد جابر الأنصاري[1]

عندما تُخترق كل الخنادق تصبح الثقافة خط الدفاع الأخير.. أليس هذا الإحساس وارداً بين الأحاسيس التي تنتابنا الآن ونحن نحتفي بسعاد الصباح؟

نحاول أن نقول لها شكراً.. وربما عذراً، فما نالها من السهام الطائشة في دنيانا العربية ليس بالشيء السهل..

إن قرار المنتدى الثقافي المصري وبرئاسة رجل من رواد العمل العربي -هو الدكتور عبد العزيز حجازي- بتكريم الدكتورة سعاد الصباح، يمثل لمسة حنان نبيل لقلب كل مثقف عربي يحاول لملمة الجراح في الجسم العربي المثخن بها، إنها نسمة ربيع مقبل، قد لا يكون بعيداً، ومَنْ كمصر العربية آسياً لجراح هذا الجسم العربي الكبير، الذي ينتفض مرة بعد أخرى ليقف على قدميه في وجه من ينكرون عليه حقه في الحياة والمعرفة والحرية والكرامة؟

1- مستشار ثقافي للعاهل البحريني. كاتب ومفكر، أستاذ دراسات الحضارة الإسلامية والفكر المعاصر، وعميد كلية الدراسات العليا في جامعة الخليج في البحرين وعضو المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون في البحرين. بكالوريوس آداب عام 1963م. ماجستير في الأدب الأندلسي عام 1966م. دكتوراه في الفلسفة الإسلامية الحديثة والمعاصرة عام 1979م. رئيس الإعلام وعضو مجلس الدولة في البحرين 1971-1969. من مؤسسي أسرة الأدباء والكتاب بالبحرين وأول رئيس لها سنة 1969. حاز على جائزة الدولة التقديرية في البحرين، وجائزة سلطان العويس في الدراسات القومية والمستقبلية وجائزة منيف الرزاز للدراسات والفكر.

سعاد الصباح..!!

ألم يصبح هذا الاسم رمزاً لأجمل ما لدى العرب.. ولأقسى ما في العرب؟

تمسكتْ بعروبتها إلى حد الجفاء مع الأهل والعشيرة، فجاءها غيلةً من أراد اجتثاثها من جذورها بدعوى ذلك "الأصل" "العربي"، بعد أن رفعته فوق هامات كل النخيل في شطوط العرب، ولا مفر من أن يغتصب الذاكرة ذلك البيت المؤلم:

إذا خانك الأدنى الذي أنت حزبه
فوا عجباً إن سالمتك الأباعدُ

وتتحد التجربة المرة عبر العصور في هذا "الحد الشرقي" من الوطن العربي.. من طرفة بن العبد إلى سعاد الصباح!

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

ولكن تبقى شهامة الإصرار والالتزام في صميم ما صمد من عروبة:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني
عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلد

واليوم في حاضر العرب، وفي هذا الحد الشرقي نابت سعاد الصباح عن فتيان العرب ورجالهم.. في نجدة وجرأة وشهامة.. فكانت أخت الرجال التي ينتسبون إليها بفخر..

اتحد لديها الشعر بالموقف، والحرف بالسيف.. فلم تسكته عندما احتيج إلى القول.. ولم تتراجع عندما احتيج إلى الإقدام.

لم تكن مبدعة فن وحسب، كانت مبدعة قيم وأخلاق كذلك.. وما أندر مثل هذا الإبداع في حاضر العرب.. كانت مبدعة نجدة وشهامة..

وكما قلنا عنها في مناسبة تكريمها لشاعر البحرين الكبير الأستاذ إبراهيم العريض:

"فإن الأبلغ من كلمتها فعلها الثقافي في حد ذاته.. المتمثل في بادرة منها أرست أول قاعدة عربية لتكريم الرواد الأحياء".

منذ أن أرست سعاد الصباح هذه القاعدة بتكريمها المصلح المتميز ورجل الإحياء والتنوير العربي الراحل عبد العزيز حسين، أحد أبرز شهود الالتزام القومي في الكويت والخليج العربي كله، وهي تبني أمام الأنظار هاتين الحقيقتين ليس عن المرأة الكويتية والخليجية وحسب، وإنما عن المرأة العربية والإنسان العربي بعامة.

الحقيقة الأولى: أن المرأة العربية، إذا امتلكت الوعي الصحيح والإرادة الحرة، تستطيع أن تنجب النهضة والإبداع مثلما تنجب الرجال.

الحقيقة الثانية: أن بين عرب الخليج، نساء ورجالاً، من استطاع بالفعل تحويل الثروة إلى ثورة بناء للثقافة والنهضة والإنسان على امتداد الوطن العربي.. وهي حقيقة أصبحت نهباً لتجنٍّ كبير من "ذوي العربي".. في هذا الزمن العربي الرمادي الذي أضاع التمييز بين عدو وصديق..

***

والكويت.. بلد سعاد الصباح.. عندما يُحتفى به اليوم في مطلع الألفية الجديدة "عاصمة للثقافة العربية".. فإنما ذلك بعض وفاء لبلد كانت أولويته الإستراتيجية منذ رفع راية الاستقلال خدمة الثقافة العربية في

إسـهامات يعرفهـا جيـداً كل مثقـف عـربي منـذ خمسـينيات القـرن العشرين، بـين محيـط وخليج.

لم تضـع الكويـت في أولوياتهـا الإسـتراتيجية تجييـش الجيـوش، وجلـب الأسـاطيل.. كانـت تجلب الكتب.. تطبعهـا وتترجمها وتوزعهـا.. لكنها أرغمت وترغـم اليـوم عـلى غـير ذلـك. وبرغـم ذلـك تبقـى مصرة عـلى خدمـة الثقافة العربيـة.. "وتجييـش المثقفـين العـرب".. وجلب الكتب -لا الأسـاطيل- إلى كل أرض عربيـة.. رغـم ظلـم "ذوي العـربي"!!

هـذا الظلـم الـذي ينـوب الكويـت.. كـما نـاب سـعاد الصبـاح.. ويا سـبحان اللـه.. امـرأة في وطـن.. ووطـن في امرأة.. يكشـف الأجمل والأقـسى في مكنون العرب!

فشـكراً، للدكتـور عبـد العزيـز حجـازي وللمنتـدى الثقـافي المـصري، لهـذه البـادرة.

وشـكراً، سـعاد الصبـاح، نيابـة عـن كل العـرب الراضـين والسـاخطين لمـا تقومـين بـه من عطـاء وتضحيات.. وشيء مـن الوفاء أيها الأشـقاء.. وهل جزاء الإحسـان إلا الإحسـان.. ولا أزيـد، فـإذا رميـت يصيبنـي سـهمي.

سعاد الصباح.. شاعرة البوح والرفض

محمد البعلبكي[1]

تعد الدكتورة سعاد الصباح من شاعراتنا الرائدات بفضل دواوينها التي جسدت فيها تجاربها في الحياة وتجارب المرأة العربية التي ثارت على التقاليد التي كانت حجر عثرة أمام تقدمها وامتلاكها الثقافة العالية. ومن دواوينها: من عمري، أمنية، إليك يا ولدي، فتافيت امرأة، في البدء كانت الأنثى.

بدايات سعاد الصباح الأدبية كانت ندى طفولياً، كانت كعشبة الصحراء حين يرويها الغيث السماوي.

في سن الثالثة عشرة بدأت رحلتها الأولى مع الشعر، فجاءت قصائدها بوحاً ذاتياً في سن المراهقة، تخطت فيها جداراً كان يقف بين المرأة العربية وكتاباتها، ثم جمعتها في ديوان ونشرته عام 1963 تحت عنوان "من عمري"، وكان أول ديوان لامرأة خليجية يصدر في ذلك الحين.

كانت قراءات سعاد الصباح متنوعة في جميع المجالات، وبخاصة بالنسبة للشعر، حيث بدأت من التراث وانتهت إلى الحداثة، فتأثرت بالمدرسة المهجرية، وعلى رأسها جبران خليل جبران، وحركة أبولو في مصر، وبدا

1- كاتب صحفي لبناني. شغل منصب نقيب الصحافة اللبنانية منذ عام 1982 حتى سنة 2014، انتخب خلالها 9 مرات متتالية بالإجماع لشغل هذا المنصب. تلقى تعليمه في كلية المقاصد الإسلامية في بيروت، ثم التحق بالكلية الشرعية أزهر، بعدها أكمل دراسته بالجامعة الأمريكية في بيروت وتخرج فيها سنة 1942، حاملاً شهادة الأدب العربي.

هـذا التأثـر جليـاً في ديوانهـا الثاني "أمنية" الصـادر عـام 1971، والذي اعتبرته الشـاعرة "كتـاب الأمـل والحبـور"، حيث طغـى الجو الرومنسي عـلى قصائده.

وتابعـت مسـيرتها الأدبيـة منفتحـة عـلى الثقافـات الأجنبيـة التـي أعطتهـا -فيـما بعـد- دفعـاً جديـداً لكتاباتهـا، وفتحـت أمامها نافذة واسـعة تنشـقت منهـا نسـيم الإبـداع، فأصبحـت لا تخجل مـن همها كامرأة ومـن هموم بنات جنسـها. واسـتطاعت أن تـرى العـالم أكثر وضوحـاً وأكثر بروزاً مـن عالمها الأول الـذي ظهر داخـل مجموعتيها الشـعريتين السـابقتين.

صورت شـاعرتنا نبضات وجدانها في كلمة سـطرت، وظلت تناضل في سـبيل المـرأة العربيـة وحريتها واسـتقلاليتها ونهضتها، وكان ديوانهـا "فتافيت امرأة" الصـادر عـام 1986 صرخـة مدويـة من أجل كرامة هـذه المرأة.

في هـذا الديـوان وجدت سـعاد الصبـاح نفسـها.. معطياتهـا، واعتبرته ديوان الصراحـة والشـجاعة والجـرأة، اعتبرتـه ديـوان الأرض التي تقـف عليها.. أرض الواقـع. وفيـه أرادت أن يكـون لهـا مـا يكـون للرجـل مـن حقـوق وواجبـات. اعتبرتـه مـن عيـون شـعرها، فهو المـرآة التـي عكسـت صورتها وصوتهـا، وفيه اسـتد أداؤهـا وقويت لغتهـا، وزادت مفرداتها عن مفردات الدواوين السـابقة نظـراً للتجربـة والمعاناة والاتصـال بالآخرين.

لقـد اعتـبرت هـذا الديـوان التحـول الرئيـس في خطهـا، إذ عـبّرت فيـه عـما كان يجـول في نفسـها كامـرأة تريـد أن يسـمعها الرجـل، وأن تأخـذ نصيبها في الحياة.

لم يكـن همهـا فيـه هـمّ امـرأة فقـط، كان همهـا إنسـانياً وقوميـاً، ذلـك أن الديـوان جمـع همـوم المـرأة الاجتماعيـة وهمـوم الإنسـان العـربي وهمـوم الإنسـان أينـما وجـد، دفعـة واحـدة.

عالجت سعاد الصباح في شعرها بعض الأمراض المتغلغلة في المجتمع العربي، مستعملة في ذلك لغة "الكي"، مما جعل هذا المجتمع ينتصب في وجهها صارخاً لأنه لم يعتد وجود امرأة تعالج الأمراض وتصف الدواء. فالرجل هو أبداً ودائماً المعالج، أما أن تأخذ المرأة المبادرة فهذا من المستحيل، ولا بد أن تكون الصرخة في وجهها قاسية. ومع ذلك لم تأبه الشاعرة لهذا الواقع، فواجهته بجرأة متخطية الخطوط الحمراء المرسومة حولها، وحطمت الأغلال ذاهبة في ذلك إلى أن المرأة قد توصلت إلى درجة من العلم والثقافة والرقي تجعلها ترفض وصاية الرجل على عقلها وفكرها وتوجّهها وطموحها.

كانت سعاد الصباح صوت المرأة داخل مجتمعها الكويتي وخارجه، ومع ذلك فقد حاربتها المرأة.. خذلتها.. هاجمتها بعنف، وربما كان الهجوم بسبب الغيرة لأنها شاعرة متميزة. كما أن الرجل هاجمها أيضاً لأنها تعدّت على امتيازاته، وحاولت أن تسحب من تحت قدميه "السجادة التاريخية التي شرعها في الأدب والقانون والسياسة والاقتصاد وفي كل الوجهات".

لقد واصلت المسيرة بعزم وإيمان وثقة كلية بالنفس، حتى استطاعت أن تشعل شمعة في الدرب الطويل المظلم الذي تسير فيه المرأة العربية. وقد عبّرت عن مسيرتها هذه في أكثر من قصيدة، ومنها قصيدة "أنثى 2000" من ديوان "في البدء كانت الأنثى"، حيث تقول:

قد كان بوسعي
ألا أرفضَ
ألا أغضب
ألا أصرخ في وجه المأساةْ
قد كان بوسعي

أن أبتلع الدمعَ
وأن أبتلع القمعَ
وأن أتأقلم مثل جميع المسجونات
قد كان بوسعي
أن أتجنب آهة كل المحزونين
وصرخة كل المسحوقين
وثورة آلاف الأموات..
لكني خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات..

إن صوت سعاد الصباح الخليجي الصادر من البطحاء الذهبية الرمال كان صوت اللواتي لا صوت لهن في دنيانا الشاسعة. ما بحّ صوتها داخل الورق وفوق المنابر في سبيل إيصال رسالتها إلى كل من اضطهد ويضطهد المرأة. لقد حملت همّ المرأة على محمل الجد لأنها حملت الشعر على محمل الجد.

إن شعر سعاد الصباح من طينة الشعر المعبر عن خلجات الإنسان العربي، لقد قرضته باكراً، وظلت تقرضه بشوق ولهفة حتى حفر في فؤادها:

أيها الشعر..
يا الذي يأكل من قلبي صباحاً ومساءْ
يا الذي يحفرني حتى العياء..
وتقول في مكان آخر:
أنا الخليجية
التي تقاتل بأظافرها
من أجل أن يكون الخبز للجميع

لقد خرجت على التقاليد والأعراف المتأصلة في عمق التاريخ العربي، وما ترددت يوماً في الجهر علناً بآرائها سواء في شعرها السياسي أو شعرها الاجتماعي.

وبعد، إن الأدب العربي المعاصر ليعتز بأنه أنجب الشاعرة سعاد الصباح، كما أنجب فدوى طوقان ونازك الملائكة.

تبوأت الشعر بعدما خاضت غماره بحب كبير. إنها شاعرة البوح والرفض في تاريخ شعرنا الحديث. إنها شيخة خليجية في نسبها وأميرة عربية في شعرها. أطال الله عمر د.سعاد الصباح، وأعانها لتظل تبدع في عالم الشعر، فتمد المكتبة العربية بالزاد الدسم وقوارير الطيب.

نخلة عربية في فيافي الكلمة

ثريا البقصمي[1]

صوتها الرقيق، الجريح، يطالب برفع الأقفال عن نفس أنثوية مصلوبة على جدران تقاليد بالية. وبكل ما تملكه من سلاح لا يتعدى كلمات وقوافي وشعراً ينساب بسيطاً إلى حد الدهشة. تقف الشاعرة سعاد الصباح على هضبة مرتفعة، تطل على عالم المدينة والقرية والصحراء وتعطي ظهرها للرماح، مدافعة عن حقوق بنات جنسها وعن مشاعرهن، متحدية أخيلة ذكورية تخيف ظلالها نساء مكممات حتى الخرس.

وفي فلك إنساني تدور الشاعرة المبدعة، حيث تمزج عالم الحلم المطرز بحواشي الدانتيلا، بواقع قاس لامرأة شرقية، ترتكز على أرض هلامية، تتحول في أية لحظة إلى حفرة وأد جاهلية.

لقد عشت عالم الشاعرة سعاد الصباح عندما وضعت رسومات لمجموعتها الشعرية "خذني إلى حدود الشمس"، وكانت رحلة ممتعة خلف الكلمات المشحونة بالتحدي والألم، المتأرجحة بين الأمل والإخفاق. وعلى الورق

1- قاصة وكاتبة وفنانة تشكيلية، عضو الجمعية الكويتية للفن. حاصلة على الميدالية البرونزية عام 1971 من قبل الجمعية الكويتية للفنانين التشكيليين. تلقت تدريبها الأكاديمي بكلية الفنون الجميلة في القاهرة، مصر في الفترة ما بين عام 1972 وعام 1973، حصلت على درجة الماجستير في كتاب الرسومات المصورة والتصميم من معهد سوريكوف في موسكو- روسيا 1981. حصلت جائزة السعفة الذهبية من مجلس التعاون الخليجي مرتين، مرة بالرياض عام 1989 والأخرى بالدوحة عام 1992. حصلت على الجائزة الأولى في معرض متحف الكويت الوطني في العامين 1987. تلقت العديد من الجوائز في مجال الأدب عن مجموعة القصص القصيرة "شموع السرداب" من قبل مؤسسة الكويت للتقدُم العلمي عام 1993، وجائزة الدولة لأدب الطفل عام 1997 عن كتابها لقصص الأطفال "ذكرى فطومة الكويتية الصغيرة".

يتحاور رجل وامرأة وبينهما همٌّ أبديّ في التسابق لتحقيق الذات. وعندما تداس المرأة تتحول من أنثى رقيقة إلى قطة شرسة!!

وعوالم الدكتورة سعاد ملونة.. مزخرفة.. مفعمة بحزن يتلفع بعباءة بدوية. ومن خلف السطور تهب علينا نفحات بخور ودهن عود وماء ورد.

ونلمس الأمكنة والأزمنة من خلال قصائدها، إصراراً كبيراً على شرقيتها والبعد عن مظاهر التغريب. فهي وإن كتبت بعض قصائدها في منتجع فرنسي أو سويسري محاطة بسلاسل جبال الألب المغطاة قممها بالثلوج البيضاء، إلا أنها ما يزال يموج في داخلها البحر الأزرق، وتداعب أمواج شاطئه قدميها، أو تستند على جذع نخلة وترسم أناملها على الرمل الصحراوي كلمات مثل "في البدء كانت الأنثى".

وبروح شعرية شفافة، تطرح الشاعرة هموم الوطن، سواء كانت امرأة أو رجلاً أو أرضاً أو غيمة زرقاء ضلت طريقها. وهي ترسم شخوصها بدقة، تشحنها بطاقات عذاباتها التي لا تنتهي. نساؤها يعشن عالم الحلم، ومن نوافذ الروح ينثرن تلك الأمنيات الصغيرة التي تشع الدفء بين السطور، ومن عين عاشقة قد تذرف دمعة، لكنها تسرج خيل الكرامة الجريحة، وتدافع عن آدميتها في صور موغلة في التحدي والإصرار على التساوي في الحب والعطاء.

"القمة تتسع للجميع"، مقولة تؤمن بها الشاعرة، وهي تغمض عينيها وتترك ابتسامة عريضة تسبح في هدوء وجهها، ويداعبها حلم إنساني ثقافي حضاري جميل، وهي أن ترى إبداعات الشعراء والأدباء وبحوث العلماء

تغمـر عالمنـا العربي.

لقـد أسـهمت عـبر مؤسسـتها الثقافيـة في دعـم ذلـك التوجه، وبذلـت المال والخـبرة في تشـجيع المبدعـين بمختلـف العصـور، وخصصـت الجوائـز الأدبيـة والعلميـة التـي حملـت اسـمها واسـم المغفـور لـه قرينهـا الكبـير، ففسـحت طاقـات مـن الطمـوح الجميـل أمام جيل الشـباب. وهـذا الهم الإنسـاني الذي تحملـه عـلى عاتقهـا ليـس بجديـد عـلى الدكتـورة الشـاعرة، فتفاعلهـا مـع الأحـداث السياسـية والثقافيـة في عالمنـا العـربي كان دائـم التوقـد، يعيـش في عـالم قصائدهـا المسـحونة بوجـع الإنسـان.

سعاد الصباح.. شاعرة

عبدالله الجفري[1]

هل تستطيع امرأة
أن تتخطى منطق الأبواب والأقفال
نازعة عن عقلها عباءة الرمال
هاربة من آخر القبول
حتى آخر السؤال؟!!

***

ذات يـوم.. اندلعـت حملة صحافية ضد الشـاعرة المتألقة سـعاد الصباح، أو ضـد شـاعريتها، وكانـت حملة "ذكوريـة" ما لبثت أن امتصتهـا رمال الصحراء.

وفتشـت يومهـا عـن "سـعاد"، كانـت كمطلـع القصيـدة العربيـة الشـهيرة: "بانـت سـعاد"، اختفـت، حتى عرفت أنهـا رحلت إلى جبـل يعصمها من ذلك

1- أديـب سـعودي يعـد مـن رمـوز الصحافـة السـعودية، لـه العديـد مـن المؤلفـات التـي اسـتحقت تقديـر القـراء خـلال مشـواره الحافـل بـين العطاءيـن الصحفـي والإبداعـي، واتجـه الجفـري في الخمـس عـشرة سـنة الأخـيرة مـن عمـره لكتابـة المقـالات اليوميـة، وقـد كتـب في صحيفـة الحيـاة وعـكاظ والبـلاد، وحصـل عـلى العديـد من الجوائـز: الجائـزة التشـجيعية في الثقافـة العربيـة مـن المنظمـة العربية للتربيـة والثقافة والعلوم في 20 ديسـمبر عـام 1984م، تقديـراً عـلى كتابـه: (حـوار في الحـزن الدافئ)، جائـزة "علي ومصطفـى أمين للصحافـة" عام 1992 عـلى مقالاتـه الرائعـة، جائـزة "المؤتمـر الثـاني للأدبـاء السـعوديين" بـإشراف جامعـة "أم القـرى" تقديـراً لـدوره البـارز في إثـراء الحركـة الأدبيـة والثقافيـة في المملكـة (1998)، الزمالـة الفخريـة مـن "رابطـة الأدب الحديـث" بالقاهـرة، شـهادة تقديـر مـن "الجمعيـة العربيـة السـعودية للفنـون والثقافـة والإعـلام" التـي أسسـها الـروائي يوسـف السـباعي، وذلـك تقديـراً لإنجازاتـه الجليلـة وعطائـه الوافـر للمجتمـع في عـام 1986 م، جائـزة تقديرية وشـهادة مـن صحيفـة الريـاض عـام 1422هـ وتسـمى: جائـزة التنـوع والالتـزام، جائـزة تقديريـة وشـهادة من (جمعيـة لسـان العـرب) للحفـاظ عـلى اللغـة العربيـة التابعـة للجامعـة العربيـة عـام 2005م - 1426هـ.

الـذي وصفتـه: "وليمة همجيـة" ضدها.

وعرفـت سـعاد الصبـاح بعـد ذلـك: شـاعرة ومحاربـة، وكان لا بـد لهـا أن تفعـل ذلـك وهـي تُطعَـن بالحـراب عـلى شـكل كلمـة.. لكـن "سـعاد" حـين (بانـت): شـاعرة رقيقـة، جذلـة، كانـت تهرِّب أوراقهـا -كما قالت- من سـجن النسـاء وتغنـي، فلـم تكـن تعـرف الـصراخ حينـذاك.

وفي حـوار لي معهـا في تلـك السـنوات (ثمالـة السـبعينيات).. فجّـرت هـذا الـرأي الـذي لا بـد أن يفرش "وليمـة همجية" أخرى، فقالـت يومها: "تجربتي في المربـد.. كشـفت لي أن الشـعراء العـرب الأكـثر تفوقـاً، والأكـثر شـهرة.. هم الأكـثر بدائيـة وتخلفاً في الاسـتماع إلى الشـعر"!!

وإذا جاز لي أن أضيف إلى تلك الصورة التي رسـمتها الشـاعرة قبل سـنوات، فإنني أقول:

إن الكثـير مـن الشـعراء المعاصريـن الذيـن أطلقنـا عليهـم نعوتـاً ترقى بهم إلى عليـين بالتفـوق، والتفـرد، والتميـز، وهـم يصولـون ويجولـون في السـاحة الثقافيـة.. إنمـا هـم: الأكثر تشـبثاً بـ"الأنـا"، والأكـثر التصاقاً بذواتهـم.. إنهم لم يعـودوا يقـرؤون إلا شـعرهم الذي تحتفـي به الصحف والمجـلات، ولم يعودوا يقـرؤون إلا المقـالات التـي تمتدحهـم، فتزيدهـم غروراً واسـتعلاء!!

***

وفي هـذا السـياق: حكـوا قبـل أعـوام قليلـة عن شـاعر معاصر، ممـن تطلق عليـه الصحافـة الثقافيـة العربيـة ألقـاب: "الشـاعر الكبـير، المبـدع، المتفـرد"، فقالـوا: لقـد عمـد الشـاعر الكبير (فـلان) إلى صفع فتـاة / شـاعرة حديثة بعد انتهـاء أمسـية شـعرية، لأنهـا جادلتـه وصارحته بغـروره وبعبادتـه لذاته!

وبرغم أن الحكاية عندي لم تصل إلى درجة القناعة بها (حسب فكرتي الإعلامية عن الشاعر الكبير)، لكنها كانت من نوع: العيار الذي لا يصيب (يدوش).. وفي الوسط الثقافي العربي تطلق دائماً "عيارات" نارية الكلام، تسيء إلى الآخرين، أو كما قالت د.سعاد الصباح: "كل سباحة ضد التيار تثير غضب البحر".

فهل الكاتب المبدع الذي يستشرف منطلقات رحبة بالكلمة ومسؤوليتها، يعتبر في رأي مقيمي "الولائم الهمجية": سباحاً ضد التيار، وأنهم هم البحر الغاضب.. وأي بحر هذا؟!!

تلك سمفونية الأرض الجديدةْ
تتوالى، تتوالى.. مثل موسيقى
القصيدةْ
تحمل البرق إلينا والمطرْ
أحرقت أوراق كل الأدباءْ
خلعت أضراس كل الخطباء
فافرشوا السجاد والورد لأطفال
الحجارةْ
واغمروهم بالزَّهَرْ!!

ولا بد أن هذا الانسجام قد تبلور أو تمخض منذ قرأنا لها قصيدتها / اللحمة أو الوشيجة التي تمزجها بالأرض، وقالت فيها:

إن جسمي نخلة تشرب من شط العرب!!

ومن قرأ تلك القصيدة لا بد أن ينظر إليها وكأنها: "يوميات خليجية".

أما قصيدتها: (فيتو على نون النسوة)، فقد قرأناها يومها (وقوفاً)، لأنها قالت فيها:

يقولون: إني كسرت بشعري جدار
الفضيلةْ
وإن الرجال هم الشعراءْ
فكيف ستولد شاعرة في القبيلةْ؟!

وبعد، فإذا كان للشعر في كتابات الدكتورة سعاد الصباح حظ عظيم.. فقد كتبت أيضاً في الاقتصاد وعن النفط، كتابات لافتة، هذا إلى جانب عضويتها منذ زمن في اللجنة التنفيذية للمنظمة العربية لحقوق الإنسان. وكذلك شاركت في ندوات فكرية واقتصادية عالمية.. حتى اتجهت إلى "رسالة" النشر، فأنشأت "دار سعاد الصباح للطباعة والنشر"، وحدث لها ما حدث من وراء المستغلين لثقتها فيهم.

لكن الصدمة لم تثنها عن فكرتها وما احتملته على عاتقها من تشجيع المبدعين، وإتاحة الفرصة للمبدعين لينشروا إبداعاتهم.

وقد أشرت مرة إلى (تعددية) شخصية وثقافة "سعاد الصباح"، وقلت عنها: هذا لا يعني أنها امرأة شاملة، ولا كاتبة متعددة في مشاركاتها، بقدر ما أريد أن أؤكد اكتشاف (الإنسان) الحقيقي في أعماق هذه الشاعرة المثقفة، ذات الانتماء (العروبي) القومي الباهر!!

و"سعاد الصباح" مبدعة معنية بعالمها، ومتألمة بقضايا إنسانها.. تضيء فكراً، وتمطر شعراً حين يستبد بها الحزن الإنساني.

والكتابة عنها اليوم -في صمتها الذي اختارته- إنما يحرضنا على التفتيش عنها، ودفعها إلى الصهيل كمهرة عربية أصيلة.. ونحاول أن نشهد معها ملامح هذا القرن -الواحد والعشرين- ومتغيراته، في نفس اللحظات التي تتجسد فيها "العلاقات الاجتماعية الوحشية" حسب تعبير عالم اجتماع حديث.

الدكتورة سعاد الصباح

د.يحيى الجمل[1]

ملمحان أساسيان تبصرهما العين الفاحصة في ذلك الوجه النبيل..

شعور بالاعتزاز في غير صلف ولا غرور..

وشعور بالخفر في غير خجل ولا انغلاق..

هـذان الملمحـان في وجهها النبيـل رأيتهـما منـذ كانـت طالبـة تسـعى إلى تحصيـل العلـم في كليـة الاقتصاد والعلوم السياسـية في جامعـة القاهرة، وظلّا يلازمانهـا إلى أن أنضجتهـا الحيـاة وظـروف الزمـان، واختلط هـذان الملمحان: الاعتـزاز والخفـر بنـوع من الحـزن الهـادئ النبيل.

أرأيـت كيـف يكـون الحـزن نبيـلاً أحيانـاً، وكيـف يكـون الاعتـزاز والكبريـاء بغـير كـبر ولا تعـالٍ، وكيف يكون الخفـر والحياء في وجه تلـك الطالبة العربية الجميلـة القادمـة مـن الكويـت لا يعنـي خوفـاً ولا بعداً عـن الحياة.

ومنـذ زمـن بعيـد.. منـذ تأسـيس المنظمـة العربيـة لحقـوق الإنسـان في ليماسـول منذ حوالي خمسـة وعشرين عاماً، أدركت أن سـعاد الصباح ظاهرة عربيـة غـير عادية.

1- فقيـه دسـتوري مـصري، حاصـل على ليسـانس الحقوق 1952 وماجسـتير في القانـون 1963 ودكتـوراه في القانون 1967، عضـو المجلـس القومـي للتعليم والبحـث العلمي، عضو محكمـة التحكيم الدوليـة بباريس، عضو مجلس الشـعب الدوليـة بباريـس رئيـس حزب الجبهـة الديمقراطية، جائـزة الدولـة التقديرية في العلـوم الاجتماعية من المجلـس الأعـلى للثقافـة 1998 عضـو لجنـة الحكـماء التي تم تشـكيلها أثناء انـدلاع ثورة 25 ينايـر عام 2011.

سعاد الصباح من أثرياء العرب الخليجيين، وهي زوجة لشيخ وقور من مشايخ الكويت، يرحمه الله، وكل ظروفها هيّأتها لحياة ناعمة وارفة الظلال مثل أترابها من تلك البيئة الخليجية: تقضي أشهراً قليلة في الشتاء في الكويت، وتقضي بقية العام متنقلة بين منتجعات أوروبا وأمريكا، تبعث بزجاجات "البرفان" وحبات اللؤلؤ والألماس، وتلقي بذلك "الفورير" لتشتري آخر بدلاً منه، وتقضي وقتها متنقلة بين عروض الأزياء.. هكذا تفعل نظيراتها أو قريباً من ذلك.

ولكن سعاد الصباح لم تكن أبداً كذلك.. كانت طالبة جادة كأحسن ما يكون الجد.

ولم تكتف بأن تحصل على درجة البكالوريوس في الاقتصاد، بل حرصت على أن تحصل على "الدكتوراه" من جامعة في إنجلترا.

ولم يكن ذلك كله مجرد حلية أو زينة، وإنما كان عملاً هادفاً مقصوداً، كانت تريد أن تستزيد من العلم، وكانت تريد أن تعيش عمرها، وأن تبزَّ أقرانها من بنات البلاد المتحضرة.

لم تكن آمالها محدودة، ولم تكن ترضى بالحوض المباح.

وفي وقت مبكر تفجرت في أحاسيس سعاد الصباح وفي وجدانها ملَكة الشعر.

وبعد وقت غير طويل كانت سعاد من الشاعرات العربيات اللاتي يشار إليهن بالبنان، وتعددت دواوينها، وانتشرت قصائدها في المنتديات العربية من الكويت إلى القاهرة إلى تونس إلى بغداد قبل المأساة.

كل العواصم العربية احتفلت بشعرها وسعدت به.

وتأبى سعاد الصباح بعد ذلك كله ومع ذلك كله إلا أن تكون مناضلة تقف في مقدمة الصفوف مدافعة عن أنبل قضايا العصر: حقوق الإنسان.

وعندما بدأنا تأسيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان كانت سعاد الصباح في مقدمة المتحمسين المؤمنين المدافعين عن حقوق الإنسان العربي، وكانت معنا أو كنا معها في أول مجلس أمناء لأعضاء المنظمة بعد تأسيسها.

كانت هي السيدة الوحيدة في مجلس الأمناء، وكان يرأس المنظمة والمجلس المناضل الكبير المرحوم فتحي رضوان.. وكان يكنُّ لها تقديراً عميقاً. وكان أعضاء المجلس من طليعة المناضلين العرب الذين لم تلن لهم قناة في الدفاع عن الحق، والذين لم تغرهم المناصب، أو تقعد بهم المكاسب القريبة. وكانت سعاد الصباح بيننا واسطة العقد، كانت هي التي نلتقي حولها، وكانت هي التي تشعر الجميع أنها قريبة منهم، كانت، وما تزال -أطال الله عمرها- كنفاً للذين يألفون ويؤلفون ويشيعون حولهم جواً من الثقة والدفء والتفاؤل.

وإلى جوار المنظمة كانت لا تتردد في حضور كثير من ندوات ومناقشات مركز دراسات الوحدة العربية الذي اتخذ من بيروت مقراً له منذ إنشائه.

وكانت عندما تحضر ندوة من ندوات المركز تحتفل لها وتستعد وتشارك في المناقشات بندّية وموضوعية وإخلاص.

وكان يكفي سعاد الصباح هذا كله لكي تكون واحدة من أعظم وأندر السيدات العربيات، ولكن سعاد لم تكتف بذلك.

كانت تدرك أن الله أفاء عليها من الرزق ما يجعلها تحمل مسؤوليته أمام أبناء أمتها في كل مجال من المجالات.

أذكـر أن المنظمـة العربيـة لحقـوق الإنسـان عندمـا اتخـذت مـن القاهـرة مقـراً لهـا.. حتـى بغـير اعـتراف رسـمي مـن الدولة.. سـارعت سـعاد واشـترت لهـا مقـراً تـأوي إليـه، وتبرعت به للمنظمـة، ولم تـتردد في أن تدفع بضع مئات مـن ألـوف الـدولارات ثمنـاً لذلـك المقـر قبـل أن تنتقـل إلى مقرهـا الجديـد – الفخـم- في ضاحيـة مـصر الجديدة.

ولم تكتـف بذلـك، بـل إنهـا تبرعـت للمنظمـة بمبلـغ مـن المـال كان نـواة لإنشـاء "وقفيـة" تسـهم في تغطيـة مصاريـف المنظمـة وأعبائهـا.

وكما فعلت مع المنظمة فعلت مع مركز البحوث والدراسات العربية.

مـا دعيـت إلى عمـل مـن أعـمال الخـير النافع المسـتمر إلا كانـت في مقدمة المسـتجيبين المشـجعين، وكانـت حريصـة الحـرص كله على أن تخفـي ما تفعل عـن الكثيريـن، ولكـن عطاءهـا كان مـن الصعب أن يحجـب أو أن يخفى.

ولقـد صادفـت سـعاد الصبـاح في حياتهـا كثـيراً مـن النكـران والأذى، وكان مصـدر ذلـك هـو طبيعـة بعـض مـن عرفـت مـن النـاس، وقدمـت لهـم كل الخـير، ومـا كانـت تـدري أنهـم لا يسـتحقون.

كانـت نفسـها طاهـرة لا تحمـل شراً، ومثل هـذه النفوس قريبـة الثقة، وإذا وثقـت أعطت بغـير حدود.

وكـم مـن سـيدات مـن عليـة القوم خـنّ الثقـة.. وكم مـن رجال مـن صفوة المثقفـين خانـوا الأمانة.

ولكـن سـعاد الصبـاح –مـع ذلـك- لم تكفـر بالطبيعـة الإنسـانية، ولم يقـل إيمانهـا بحقـوق الإنسـان.

وقـد رأيـت سـعاد الصبـاح آخـر مـرة منـذ مـدة في القاهـرة، وكان زوجهـا

الفاضـل قـد انتقـل إلى جـوار ربـه، وكانت هي تجاهـد كي تخفي بعـض ما ألمّ بصحتهـا. ونظـرت إلى وجههـا النبيـل ورأيـت فيـه كل المعـاني التـي رأيتها فيه أول مـرة وهـي طالبـة يافعـة تسـعى إلى العلم.

كبرياء في غير تجبر.. وحياء في غير انكسار.

وحزن نبيل زادت السنون من عمقه ومن نبله.

حيا الله تلك الدرة العربية النادرة.. الدكتورة سعاد محمد الصباح.

سعاد الصباح.. رمز الإبداع والنضال

د.الحبيب الجنحاني[1]

ماذا أكتب عن صديقة عزيزة لمست عن كثب وفاءها، وقيمها الإنسانية النبيلة، وإيمانها العميق بالإنسان وحقه في الحرية والكرامة وتحقيق التقدم، وعرفت فيها روح التسامح والسمو، فالعداوة لا تعرف طريقها إلى أصحاب النفوس الكبيرة، وعرفت فيها كذلك الثورة الصامتة، الثورة في سبيل الذود عن الحق، وإماطة اللثام عن الوجوه القبيحة التي تحاول الاختفاء وراء شعارات جوفاء وأقنعة زائفة لتستبد بشعوبها، وتقطع الأرزاق والرقاب.

لما قررتُ أن أقول كلمة عن سعاد الصباح، وأدلي بشهادة حق ووفاء انتابتني حيرة، فليس من السهل أن أكتب عن امرأة عربية تجلس فوق القمة، وتصنف في ريادتها ونضالها ضمن فئة قليلة من الرائدات العربيات اللواتي عرفهن التاريخ العربي الحديث منذ فجر النهضة العربية حتى مطلع الألفية الثالثة. وليس من المبالغة التلميح في هذا الصدد إلى أن سعاد الصباح تصنف في المرتبة الأولى بين أجيال رائدات النهضة النسائية العربية الحديثة، فسيسهب غداً تاريخ المرأة العربية المناضلة الحديث عنها إلى جانب الأميرة نازلي بنت أبي الأحرار مصطفى فاضل، وصاحبة أول

1- كاتب ومؤرخ وأكاديمي تونسي، يحمل دكتوراه في العلوم الإنسانية من جامعة لايبزيغ بألمانيا. وهو باحث وأستاذ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العربي الإسلامي. حاضر في جامعات عربية وغربية عدة. وهو أستاذ زائر: قيزن - ماربورغ، ألمانيا الاتحادية 1966 - 1969، طرابلس 1974 - 1975. وقد نشر عدداً من الكتب في تونس، والرباط، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، والكويت، وعمان.

صالـون سـياسي فكـري في القاهـرة أمّه كبار القـوم يومئذ، منهم سـعد زغلول، والشـيخ محمد عبده وقاسـم أمين، وقد أثبتت الدراسـات الجديدة أن الأميرة نـازلي هـي التي أوحت لقاسـم أمين بمـا كتبه عن المرأة الجديـدة، وإلى جانب رائـدات أخريـات مثل عائشـة التيمورية، وباحثة البادية، ومـي زيادة، وهدى شـعراوي، وغيرهـن. ولكـن المتتبـع لأدبيـات نضـال المـرأة العربيـة المعـاصرة يـدرك في يـسر مـا يميـز سـعاد الصبـاح عـن غيرهـا مـن الرائـدات العربيـات، فهـي متعـددة في مواهبهـا، ومتنوعـة في اهتماماتهـا، ومناضلـة عـلى جبهـات مختلفـة في الوقـت ذاتـه؛ وهـي الشـاعرة التـي تناولـت في دواوينهـا أغراضـاً غزيـرة ذات طابـع إنسـاني عميـق، وهي روح نضاليـة وثابة، فقـد تمردت منذ البدايـة عـلى وضـع الأنثـى، واختـارت أن تكـون ذات كيـان مسـتقل يسـتند إلى إبداعهـا وكفاحهـا وشـخصيتها المتميـزة، وليـس إلى وضـع أسري، أو مكانـة اجتماعيـة أو ثـروة ماديـة. تمـردت ضـد سـلطة الرجـل القامعـة في مجتمـع عـربي مـا يـزال يعاني من عقـد الذكورية، وضد سـلطة القبيلـة، وتمردت كذلك عـلى تقاليـد مجتمعيـة وأسرية عفّـى عليهـا الزمن:

يقولون إني كسرت بشعري جدار
الفضيلةْ
وإن الرجال هم الشعراء
فكيف ستولد شاعرة في القبيلةْ
وأضحك من كل هذا الهراء
وأسخر ممن يريدون في عصر حرب
الكواكب
وأد النساء
وأسأل نفسي:

لماذا يكون غناء الذكور حلالاً
ويصبح صوت النساء رذيلةْ؟

لكن سعاد الصباح الشاعرة الثائرة وفية لتراثها، ولم تنس يوماً أنها تربت في أحضان "الرسالة". فلما أسست داراً للنشر جاءت إعادة نشر مجلة "الرسالة" المصرية في أربعين مجلداً في طليعة منشوراتها. وتأثرت بمدرسة أبولو الشعرية، واقتطفت من أزهار أحمد زكي أبو شادي، وعلي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وأبو القاسم الشابي.

لقد تنوعت الأغراض الشعرية في دواوين مهرة الخليج الشموس؛ من التعبير عن قيم إنسانية خالدة، فعبرت عن حزن أم يضيع من بين يديها ابنها البكر في ريعان الشباب فتعبّر عن فجيعتها في ديوانها "إليك يا ولدي". وأعطت لشعبها ديوانها "برقيات عاجلة إلى وطني" غداة الغزو الغادر، مليئاً بقيم الوفاء والمحبة والنبل، وهي القيم التي لا تعرف طريقاً إلى قلوب الحكام المستبدين، وهم الذين حاولوا دوسها فوق مراتع صباها بأحذيتهم الفاشيّة.

ويشاء الله أن تعيش في بلاد الغربة والأرض محتلة، والأهل رهينة طغاة القرن العشرين. محنة قاسية فجرت ينابيع ثرة من عواطفها الإنسانية الغزيرة، ولم يتحمل الزوج، وأبو الأطفال، ورفيق الدرب، والمعلم.. محنة الغزو، فرحل آخر السيوف، وصقر الخليج الشيخ عبدالله المبارك أحد بناة الكويت الحديثة، ويشاء الله أن يدفن كما كان يتمنى؛ في قلب وطنه المحرر.

وهي كذلك مؤلفة الأبحاث والدراسات في الاقتصاد السياسي، وفي قضايا التخطيط والتنمية، وكاتبة المقال الصحافي، ومعدة البرامج الإذاعية دفاعاً

عـن وطنهـا لمـا هبّـت عليـه ريـاح مسـمومة، ودفاعـاً عن شـعبها يـوم زحف عليـه الطاعـون الأسـود، محـاولاً كتم أنفاسـه.

وهـي الجامعيـة المحـاضرة في ندوات ومؤتمـرات عربية ودوليـة، وقد كرمتها جامعـة أوكسـفورد البريطانيـة بمنحهـا درجـة الزمالـة لكليـة سـانت كاتريـن الشهيرة.

وهـي النجـم السـاطع في الأمسـيات الشـعرية العربيـة والدوليـة الكـبرى، ترجـع ألحانهـا طيـور شـط العـرب شـوقاً، وبلابـل ضفـاف أبي رقـراق عـلى شـواطئ المحيـط غربـاً، مـروراً بـوادي النيـل، وعـروس بـلاد الشـام: دمشـق، وربـوة أبي سـعيد بضواحـي قرطـاج، ووصـولاً إلى ضفـاف نهـر السـين، وبحيرة جنيـف.

والشـعر عندهـا ثـورة، وانتصـار على الهـرم والفنـاء، وتجاوز للزمـن، ورحلة جديـدة بعـد رحلـة الحيـاة، تتحـدث عـن رسـالته فتقـول: "إن الشـعر هـو التعبـير والثـورة.. وبـه يـدرك الإنسـان قيمتـه وإنسـانيته، وهو وثيقـة التأمين ضـد شـيخوخة الأحـداث، وضد جفاف الشـجر وجفاف البـشر. وعندما نكتب شـعراً، فإننـا ندافـع عن أنفسـنا ضـد الانقراض، ثم إن الشـعر هـو الملح الذي يعطـي العواطـف مذاقـاً فتكـون أحلى مائـدة في رحلـة الحياة".

وهـي الكاتبـة لنمـط جديد مـن السـيرة الذاتية، كـما تجلى في كتابهـا القيم "صقـر الخليـج"، وقد اتسـم بالصراحة والموضوعيـة والجرأة.

قلـت إنـه نمـط جديد مـن الترجمـة الذاتية، فهي عـادة يكتبها الإنسـان عن نفسـه، محـاولاً تخليـد أعماله، وإرضاء جوانـب ذاتية من الصعـب أن تختفي في نـص مـن نصـوص هـذا اللـون مـن الكتابـة، مهما حـاول أن يكـون صاحبها

موضوعياً. لكن "صقر الخليج" جاء ترجمة ذاتية تعبيراً عن الوفاء للآخر، فقد توارت الذات من أجل إبراز خصال الآخر، وليس الآخر الزوج، ورفيق الدرب، وأبا البنين والبنات فحسب، ولكنه كذلك الآخر رجل الدولة، وأحد الدعائم الصلبة التي أسست عليها الدولة الكويتية المعاصرة، وقبل هذا وذاك الإنسان بما فيه من نقاط القوة، ونقاط الضعف. وقد نجحت المؤلفة إلى حد بعيد في المزج بين الترجمة الذاتية والتأريخ للكويت الحديث في مؤلفها القيم ذاك، ولعل سر هذا النجاح يعود إلى سبب جلي، ألا وهو استحالة الفصل أبداً بين حياة الشيخ عبدالله المبارك وتاريخ دولة الكويت في النصف الثاني من القرن العشرين.

وهل يمكن للمرء أن يكتب عن سعاد الصباح دون الوقوف عند ثلاثة محاور أساسية في مسيرتها النضالية الخصبة، وفي ما أنجزته من أعمال جليلة:

أ. دعمها للمشروعات الثقافية العربية والدولية، وإيمانها العميق برسالة الثقافة العربية الحرة، والعقل العربي المستنير في الخروج من التخلف، واللحاق بركب التقدم، فأنشأت برفقة زوجها عام 1988 جوائز للإبداع العلمي والفكري والأدبي مع جائزة خاصة للإبداع الفلسطيني، تشجيعاً لمواهب الإبداع لدى الشباب العربي. وأصدرت دار النشر التي أسستها عشرات العناوين من المصنفات الممثلة للجوانب المضيئة في التراث العربي الإسلامي، ومن المؤلفات الحديثة الهادفة إلى نشر الوعي، والفكر النقدي.
ب. عضويتها في عدد كبير من المنظمات العربية والدولية، والإسهام في تأسيس كثير منها، مثل "منتدى الفكر العربي"، و"المجلس العربي للطفولة والتنمية"، و"المنظمة العربية لحقوق الإنسان"، وغيرها. ومن يمعن النظر في قائمة المؤسسات التي تتولى الإشراف عليها، أو

تنتسب إلى عضويتها يقف على حقيقة واضحة، وهي أن الثقافة، وحقوق الإنسان، وقضايا المرأة والطفولة، قد شغلت حيزاً بارزاً في نشاطها.

ت. وأود الإشارة في هذا الصدد إلى الدعم السخي الذي قدمته سعاد الصباح إلى جمعية عربية رائدة في مجال العناية بالطفولة، وأعني "الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية".

ث. ج- وهل من الإسراف القول: إن عبقرية الإبداع في شخصية سعاد الصباح قد امتزجت بروح النضال من أجل حقوق الإنسان بمفهومها الشامل، من حقوق الطفل والمرأة إلى الحقوق النقابية، فهي عضو "مجلس الرعاية للمركز الدولي للحقوق النقابية" ببراغ. وإنه من الطبيعي أن تتبوأ حقوق الإنسان في حرية التعبير والكتابة والنشر مكانة متميزة في مفهوم حقوق الإنسان لدى سعاد الصباح، فقد تحولت إلى "همّ دائم" و"انشغال متصل" في حياتها، ليس فقط على مستوى التفكير والكتابة، وإنما أيضاً على المستوى العملي والممارسة اليومية، كما عبّرت عن ذلك في التمهيد لكتابها الثري "حقوق الإنسان في العالم المعاصر".

إن نضالها في مجال حقوق الإنسان نابع من إيمانها العميق بالحرية منذ الصبا، فلما سألوها: من أنت؟

أجابت: امرأة قررت الخروج من قارورة التاريخ، وأن تركب سفينة الحرية، حتى الغرق.

فلا غرو -إذن- أن تصبح سعاد الصباح المثل الأعلى للمرأة العربية المثقفة، والإنسانة النبيلة المناضلة.

صديقتي سعاد

د. فاطمة العالي الحبابي[1]

وأحتار فيما أتحدث فيه إليك أو عنك، ولا أجد أقرب منك إليك من الحديث عمن كان الأول والأخير، ابن عمك الشيخ عبدالله المبارك الصباح رأس العائلة وعم الجميع.. تزوجك وأنت صغيرة جداً ولمّا تزالي في "ثانية ثانوي"، ودخلت داره بقلب ملؤه الرضا، إذ تحققت أحلام صباك في الزواج من فارس شجاع يشاركك مسيرة الحياة، تحققت يوم كان من نصيبك فارس الجزيرة وصقرها ومصدر الهيبة والوفاء في أرجائها. الرجل المثالي العظيم والحضاري الذي يؤمن بالعلم والمعرفة وبحق المرأة في أن تشق طريقها إلى العلم على قدم المساواة مع الرجل. لقد وقف إلى جانبك منذ اليوم الأول، ودفعك إلى ملاعب الشمس كي تغرفي من الثقافة والعلم وتتبوئي المكانة السامية في المعرفة والفكر، فسار معك في الطريق الطويل من الثانوية العامة إلى البكالوريوس ثم الماجستير والدكتوراه، وكان فخوراً بتسلقك مدارج العلم، فخوراً بمؤتمراتك وأمسياتك الشعرية وكتبك ومقالاتك وأشعارك، فحققت أحلامك حيث قدّر لك الزواج ممن

1- حاصلة على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة محمد الخامس، وعلى شهادة الماجستير سنة 1977 من كلية دار العلوم (جامعة القاهرة)، كما نالت دبلوماً إعلامياً مختصاً في التوثيق الآلي من مدرسة علوم الإعلام بالرباط سنة 1978، وفي سنة 1988 أحرزت دكتوراه الدولة من جامعة السوربون. نالت عضوية مجموعة من الهيئات الثقافية، من بينها: مجلس أمناء منتدى الفكر العربي (عمان)، والمجلس العربي للطفولة (القاهرة)، وجمعية الفلسفة بالمغرب، واتحاد كتاب المغرب، والمجلس التنفيذي للجواش الإفريقي (القاهرة)، والجمعية المغربية المستقبلية. ترأست هيئة تحرير مجلتي «دراسات فلسفية وأدبية» و«تكامل أصناف المعرفة»، كما أنها عضو في هيئة تحرير مجلة «الكتاب المغربي» وعضو مراسل لمجلة «Mots».

أطلقك حمامة سلام في أجواء الفضاء الرحب واثقاً بقدرتك على تحمل الرسالة التي قدّرها الله لك، ومرتاحاً لقوة عزيمتك على تبليغها، وحسن النية والقصد في السعي لإنجاحها، فلم يخطر بباله أبداً أن يتلصص على كتاباتك أو يضع خطوطاً حمراء على أفكارك وأعمالك. وظل إلى جانبك السند الدافع والكنف الرحيم الذي ترتاحين إليه عندما تعصف بك الرياح، "وياما عصفت"، والحضن الذي استقيت مما يقال في مجلسه العامر الكثير من الأفكار. لقد كان بحق الرجل الذي يستوعب العصر تهيؤاً لاستيعاب المستقبل، كان بحق الصديق والزوج والمعلم وسيد قصره الذي زرع فيك وفي ذريتكما روح العقل والعطاء دون حساب. كان بحق الأب المتخلق الذي يعي قيمة العلم وفوائد الاشتغال به، فجاءت وصيته الوحيدة لأولاده دعوتهم إلى استثمار أنفسهم بالعلم والفكر.

ما من شك أن وقوف رجل حضاري بكل معنى الكلمة، اجتمعت فيه شتى الفضائل إلى جانبك.. ساعدك على النجاح في مختلف المجالات التي اقتحمت أبوابها وتحقيق ما بلغته في حياتك العلمية والأدبية والمجتمعية. لقد كان لزوجك الشيخ عبدالله المبارك الصباح الدور الأول والأعمق والأكبر في حياتك، تقولين: "كان ولا يزال المنارة التي أضاءت لي الطريق، والصدر الحميم الرحيم الذي حماني، والذراع القوية التي شدت أزري، فقد رعاني وحماني وغمرني ببحر من فروسيته ومروءاته، ولولا فكره الحر والليبرالي لما أمكنني أن أغرف من بحار المعرفة، وأواصل رحلتي الثقافية.. وإذا كنت قد وصلت إلى ما وصلت إليه في عالم المعرفة فإن عبد الله المبارك الصباح كان وراء مجدي وانتصاري.. إنني أعتبر نفسي محظوظة به، لأنه فارس أصيل، ورجل نادر في رجولته، والرجال قليل".

أيتها الأرملة الجميلة المهذبة.. لقد انخرطت في سلك الأرامل الذي لم أتأخر كثيراً في اللحاق بك إليه. لقد حل صيف سنة 1991، وتمت بحلوله النقطة في القافية التي أعطت قصيدة حياة فارسك المغوار جمالها الهندسي وإيقاعها الموسيقي، فغاب عن مؤسستك الزوجية التي قامت على العشق والاحترام شريك العمر الذي تميز بسموه النفسي والخلقي والحضاري، جناح الشهامة والفروسية الذي غطاك في كنفه، ساعتها لم تعد النار تشتعل في ثيابك ولا في صوتك ولا في كلماتك، بل أصبحتِ ناراً، وانطلقت من حنجرتك شرارات البركان الذي يسكن وجدانك شعلة متوقدة من لهيب القلب المستعر، إذ حلت جنيات اللحظة المرصودة لتتفجر التراكمات المجتمعة في عقلك الباطن ملحمة مِن أبدع ما عرفه الشعر العربي من ملاحم، وتشهر مشاعرك الجياشة "آخر السيوف" بكائية لحبيب العمر ورفيق الطريق والفارس البطل زوجك الشيخ عبد الله المبارك.

وتُسألين عن موقعها في نفسك ومن واقعك الذاتي، ويأتي الجواب وكأنه استصرافة للشعر لأن يكون شاهداً على المكانة التي يحتلها الراحل في قلبك، حيث تقولين: "إذا كان الشعر يستطيع أن يرد بعض الجميل، فإن هذا الديوان هديتي إلى الرجل الذي كان خيمتي وعرّابي على طريق العلم والمعرفة".

وتتلو هذه الهدية هدية أخرى، كتابك "صقر الخليج" الذي جاء عربون وفاء منك لذلك الرجل الفذ الذي كانت له بصمة بارزة في معاصرة وتشكيل أحداث مهمة من تاريخ الكويت السياسي والاقتصادي والعسكري.

إن إيمانك بحق وطنك وأجياله في معرفة تلك الأحداث وما كان للشيخ عبدالله المبارك من إسهام كبير فيها، إذ كان جزءاً أساسياً في القيادة

الكويتيـة التـي أوجـدت المؤسسـة ومهدت لقيـام الدولـة الكويتية المسـتقلة، دفعـك لكتابـة هـذا المؤلـف المهم عن حيـاة هذا القائـد العظيم الـذي اختار أن يكـون في الظـل، فأبيـت إلا أن تلقـي الضـوء عـلى دوره الـذي مـا كان ولن يكـون للظـل أن يلغيه.

في انتظـار كتابـك عـن مبـارك الكبـير الـذي سيكشـف ولا شـك عـن جـذور البطولـة لـدى فارسـك المغوار ويسـجلها بمداد الفخـر والاعتزاز. أيتهـا الزوجة المثاليـة كـم أنـت وفيـة لرفيق حياتـك الذي لم يكـن غيابه عن العـين ليزحزح سـكناه في قلبـك. فلـئن افتقـدت بغيابـه "جبـلاً مـن الشـهامة والفروسـية والكـرم الأبـوي والمـروءات واحـترام المـرأة" فإنـك جعلت مـن رحيلـه حضوراً مسـتديماً، فكـم يحلـو لـك الحديـث عـن مرحلـة العمـر التـي قضيتهـا معـه، وعـن تلكـم الشـيم التـي يحـز في نفسـك أن أضحـت في أيامنـا هـذه "عملـة نـادرة". جعلـت مـن رحيله حضـوراً بالخلـق الكبير الذي ورثتـه عنه وبمواقف الكرامـة والأنفـة التـي تعلمتهـا منـه، يـوم اعتزل الحكـم ليصـون حرمة وطنه وأسرتـه، ولم يسـمح لقـراره أن يقـع في خدمـة أحـد. جعلـت رحيلـه حضـوراً بالحركـة الدائبـة التـي يعرفهـا قصركـم العامـر، وروح العطـاء والعمـل دون حسـاب التـي زرعهـا فيـك وفي ذريتكما المحروسـة. صحيح أن رحيـل الصديق والـزوج والمعلـم تـرك في حياتـك شريـاناً مفتوحـاً لنزف الأحزان، بيـد أن إيمانك القـوي باللـه واتكالـك عليـه جعلـك تجنديـن كل مـا خصـك بـه الله سـبحانه وتعـالى لمتابعـة المسـيرة في ثبـات واتـزان، تصاحبـك الرعايـة الإلهيـة، وتلازمك آيـة الكـرسي واسـم الجلالـة المحفـوران على ميداليـة طوق بها عنقـك المغفور لـه بـإذن اللـه الشـيخ عبداللـه المبـارك منـذ أكثر مـن ثلاثين سـنة، ومـا تزالين تحملينهـا كأثمـن هديـة تقـوي إيمانـك وعزيمتـك، فليحفظـك اللـه، ولـك منـه

جـل في عـلاه المزيـد مـن التألـق والعز.

ولأنـك أنـت بـكل مـا أنـت أيتها الإنسـانة الوقـور، فـإن الناس عـلى عادتهم انشـغلوا بمـا لا يشـغلك في قليـل أو كثـير. فالتطلـع إلى معرفـة الكثـير عـن نجومهـم تمـلأ أوقاتهم، فتتعدد الأسـئلة وتتوالد موضوعاتهـا، خصوصاً إذا كان الأمـر يتعلق بشـيخة تجمـع فيها ما تفـرق في غيرها؛ الجمال والوقـار والهدوء والمـال والحسـب والعلـم والشـعر. وأي شيء يمكن أن يشـغل بـال العربي أكثر مـن مـشروع الأمـيرة الأرملة المسـتقبلي: من الذي سـيحظى بمقاسـمتها شرعياً فراشـها الوثـير والجـاه وسـعة اليـد؟ مـن ذا الـذي يسـتطيع تملكهـا؟ وتتوالـد الأحـلام، ويسـتأذنك محـاورك فيسـألك عـما إذا جاءتـك عروض للـزواج، فيأتي جوابـك اسـتهزائياً وحاسـماً، وسرعـان مـا تتبخر فقاقيـع الصابون، وتـرى أيدي المشـتغلين فارغـة بـردك عليـه: "لن يجرؤ أحـد ويعرض عليّ الـزواج"! فحينما تلتقي الغباوة والفضول الزائد تتعطل آليات العقل والفكر السـليم، ويحجب عـن البـصر ضـوء الشـمس في واضحـة النهـار، فلـو فكّـر هـؤلاء الفضوليـون الذيـن يتقمصـون لغايـة مـا دور الخاطبـة، مـا كان ليجـول بخاطـر أحدهـم أن يكـون للشـيخة الوقـور المثقفـة والزوجـة الوفيـة والأم المثاليـة مـكان في قائمـة الأرامـل المعلقـة في متاجـر السـمسرة لتتلقـف أول فرصـة لتجديد بيت الزوجيـة. لـو سـما هـؤلاء إلى مسـتوى إدراك أنـك المـرأة الاسـتثنائية النـادرة التـي خرجـت عـن المألـوف ما أباحـوا لأنفسـهم الهمس بمثـل هذا التسـاؤل. فمثلـك لا ينـزل إلى أن يطلـب من أي كان أن يتـولى دور الخاطبة لها، ولا أحد يسـتحقك سـوى عبدالله المبـارك، ولا أحـد يمكـن أن يكـون بديـلاً لـه، إذ كما تؤكديـن ذلـك، مضيفـة: "مـن كان زوجهـا عبدالله المبـارك الصبـاح وكواكـب عمرهـا فرسـانه وصبايـاه وبعد مـا أنا فيه مـن إشراقة النور في الظـل وإطلالة

المعرفة واحتضان أسرة متماسكة كشجرة لا يملأ عقلها ولا قلبها الرجال ولا يليق بها إلا أن تحمل اسمه وحده".

ويظل الموضوع منذ رحيل الزوج والصديق الكبير أبي المبارك خارج العقل والقلب، ويظل زواجك منه هو الزواج الأول والأخير. فليبارك لك الله في حياتك الأسرية، أولاداً وأحفاداً، وليملأ كل جوانحك بالمزيد من الكمال والحنان والمحبة، فقناعتك ورضاك بنعم الله وأفضاله عليك عربون وفاء وإخلاص للراحل، وجواب عن كل تساؤل. وليتمادَ في انشغال بك من شاء، فسعاد الصباح صباح وغرّة في جبين مملكة المترملين الحلكة، ونجم في فلاة التائهين المظلمة، وبوصلة في محيطات المبحرين الهائجة.

دمت في رعاية الله وحفظه وزادك سؤدداً ورفعة.

شاعرة الضوء

لامع الحر[1]

سعاد الصباح شاعرة الوجد الإنساني، الطالع كما الفجر، والمبشر بتمرد نسائي، كما النبوءات، والمقتحم خدر هند وسلمى، كما الرايات، تسمو حرية وكبراً.

شاعرة تأتي إلى الإبداع وسط غابة من الغيلان، المتناحرة على شتلة ورد، كما العشاق، والمتصارعة على عرش المجد، كما الفرسان، والطامحة إلى ذهب الكلام، كما الضوء يجلو صدأ المفردات.

شاعرة تبتدئ من لحظة الشوق التي ترتد قصائد وجد وحنان، تنطلق إلى فضائها بوصلة لزورق التيه الذي يمضي على غير هدى في البراري الموحشة.

من نقطة الجمال وحدها يكون الشعر، ابتداء وانتهاء. ومن نقطة الحلم وحدها تستضيء براعم الفتنة، وتمضي إلى غاياتها غابة بيلسان، ومن وحشة الذات ينطلق الحس إلى جحيم المدى معانقاً ومقاتلاً في الآن نفسه، ليكون لصيرورته ذلك الناي الذي يغرد خارج السرب. ومن قوة الحب يستمد الشعر جبروته الماضي إلى أرضه البكر على حصان الخرافة الأولى للإنسان الأول.

1- شاعر وصحفي لبناني. مؤسس رابطة للأدب العالمي. أعدّ برامج إذاعية وتلفزيونية عدة. يتولى رئاسة القسم الثقافي في مجلة الشراع. ومثّل لبنان في مهرجانات شعرية عربية ويشارك في العديد من الأمسيات والمهرجات الشعرية.

ومـن شـجو الوطـن وأناشـيده الصاخبـة يعدو غزال الشـعر، ليـس هرباً، بل بحثـاً عـن قامتـه الجديـدة، التـي تشـبه قامـة أي وطن آخـر، حقيقيـاً كان أو متخيلاً.

تسـير إلى وردة الضـوء بخطـى قـد لا تـرى، قد لا تنوء بظل، قـد لا تبتدئ كي لا تنتهـي، وقـد لا تقـترف إثمها كي لا يمس أحـد جنونها الكبير.

شـاعرة الضـوء تمـضي إلى الضـوء كأنها لا تختار بل تسـتجيب لعبـاءة الظلال التـي لا مناص منهـا ولا هروب.

تشـتعل شـوقاً إلى الزمـن الـذي تريـد، كأن الزمـن دان لهـا بمـلء خاطـره. وتشـتعل شـوقاً إلى لمعـة الـروح التـي لا تخبـو شـعلة إبداعهـا، وإن تنـاءى البريـق قليـلاً. كأن في غيابهـا حضـوراً اسـتثنائياً، لا يـرى إلا من خـلال تموجات القلـب وذبذباتهـا السريـة.

سـيدة الحضـور الجميـل الـذي يتسـع كـما النسـغ، ويمـضي في اتسـاعه إلى رحـاب الكـرة، لتخـف وطـأة الحيـاة، وتبـدو أكـثر صفـاء ورقّـة.

سـيدة الطقـس الأنثـوي الفاتـن.. كلماتهـا تختـصر الوصـول إلى بهـاء الزمن، وتلتهم في صيرورة الوجود، لعلها تكتسـب من عناصره الأولى رحيق القصيدة.

سـيدة مـن هـذا القـرن، مـن هـذا الدهـر، من هـذه الشـمس التـي تحدق في وجوهنـا سـاخرة مـن تثاقلنا، وسـائلة بقايا الـدم في عروقنا أن تحث السـير للوصـول إلى ذروة التجليـات.

سـيدة تتجلى شـعراً يسـير في نفق الحلم، ويسـير في صحارى التيه، في سـنابل الوقـت، في زحـام الذاكـرة، في ضوضـاء الشـوارع، وفي غـروب الأغـاني.. إلى عالم يكتسـب مـن هدوئـه الصاخب ملامح الإشراق، ويكتسـب مـن طباقه الطاغي

فرصـة الحياة.

لم تكـن عـلى هامـش الشـعر يومـاً. كان الشـعر متنهـا الوحيـد، وصفصافهـا الـوارف، وضوءهـا الـذي يطـرد سره، وغيهبها الـذي ينبجس رؤى، تستكشـف وضوحهـا مـن بريـق نجومها.

تمـضي سـفينة سـعاد الصباح في عبـاب البحر، تغوص هنـا، وتتغلغل في القاع هنـاك، بحثـاً عـن جوهـرة للشـعر. ولا تعود بخُفَّـي حُنَين، بل تحمـل ما تيسر لهـا أن تحمـل من كنـوز مخبوءة تعيد للشـعر وهجه وألقـه الحضاري.

الوصـول إلى الشـعر ليـس سـهلاً لديهـا، إنـه إبحـار غـير مأمـون العواقـب، مغامـرة قـد تجـدي وقـد لا تجـدي، ولكنهـا تبقـى مغامـرة، بـكل عناوينهـا وتفاصيلهـا، ورحيـل قـسري إلى مجهـول قـد يلـد الظـلام، وقد يسـتولد الضوء.

لكـن المهـم أن المغامـرة لديهـا لا تتوقـف، لأنهـا الطريق الوحيد إلى الشـعر، وهـي تـدرك بحسـها الطاغـي أنهـا مسـكونة بمغامرة الشـعر، من قمة رأسـها حتـى أخمـص القدمين.

شـاعرة لا تخـون عمقها الإبداعي، إن تناقـض مع الهموم اليومية، والترتيبات الكثـيرة المتوجبـة، ولا تتلـكأ إذا داهمهـا ابـن عبقـر عـلى حـين غـرة، كأنهـا حـين تسـتجيب لـه تسـتجيب للنـداء الروحـي، الباحث في إكسـير هـذا العالم، عـن ماهيـة أخـرى لهـا، تضيـف إلى عنـاصره عنـصراً يثـير ألوانـاً من الدهشـة والتساؤلات.

شاعرة مثيرة للجدل.

لا نهائيـات في الشـعر، ولا ثبـات. التحـول وحـده عصـب الشـعر ونسـغه المتين.

ولا يقين في ملكوت هذا الفن المقدّر، بل شك دائم لعل الخيول الجامحة تضيء بعدوها العارم فسحة الإلهام الذي يتوقد كلما أمعنت جيادها في الصهيل.

شاعرة المرأة في عذاباتها وتأملاتها. مشاغبة في طرحها وتساؤلاتها. متمردة في حبها ووطنياتها، وشاعرة إلى روضها الملكي بجناحين أبعد من الرؤيا.

حبها حالة انصهار بين الكبرياء والانسحاق، بين الأمومة والطفولة، بين المبنى والمعنى، بين المبتدأ والمنتهى، بين التغلغل الحار في بريق التجربة إلى حد التلاشي والانبهار، وبين التغلغل البارد غير المفضي إلى الجحيم المفترض.

في حالة الحب تستوي الرؤية وعدم الرؤية، كأن الجوهر أصبح قبض اليدين، وكأن بلوغ العالم العلوي يؤدي إلى حالة تجلٍّ. ترى الأشياء بعين أخرى، ولغة أخرى، وعبقر آخر.

شاعرة لا تخشى المواجهة بل تسعى إليها، المواجهة بين عقليتين، عقلية القبيلة وعقلية العصر.. عقلية القمع وعقلية التحرر، حتى لتسمو في خضم المواجهة سمواً يجنبها أساليب المناظرات، ويحملها على خيال مجنح يتكئ على الفكر، ويتجاوزه في الآن نفسه.

إنها شاعرة الاحتجاج بلا منازع، الاحتجاج المبني على حرارة داخلية عارمة، يختفي ويظهر، يشرق ويغيب، يتقدم ويتراجع، يتشدد ويتراخى، يكر ويفر، يتوحد ويتعدد، وكأن الشاعرة لا تكتب شعراً فحسب، بل تخوض معركة بكل ما تتطلبه المعارك من أساليب ومقومات وأسس، وتحقق انتصارات ملحوظة على مستوى الإبداع الشعري.

السهولة في شعرها مغرية، إلى حد أن يظنها البعض ليست إبداعاً، لأنه

يحسب أن بإمكانه أن يأتي بمثلها. وليست قصيدة الحب لديها مجرد بطاقة بريدية أوروبية، وليست قصائد الشوق لديها رسائل عشاق عاديين، وليست اعتراضاتها على واقع المرأة العربية اعتراضات استعراضية، بل إن شعرها المغري بسهولته التي تخفي عمقاً جميلاً عصيّ على الآخرين، لأنه السهل الممتنع الذي لا يتمكن منه إلا الراسخون في الإبداع، من طراز ابن المقفع، نزار قباني، ومارون عبود.. وغيرهم.

وما قصائد الشوق لديها إلا تفجير وجداني يقتحم الآخر، ليصل إلى الأعماق، بأدوات شعرية عالية، وبلغة تظنها أليفة، لكنها ليست أليفة، فالموهبة التي جبلتها جعلت من المفردات العادية مفردات ساحرة.

والشاعرة لا تعترض على واقع المرأة لكي تعترض، أو لكي يسجل لها أنها تعترض، بل لأن نزعتها التحررية أقوى وأصدق وأصفى من أية نزعة أخرى. وما قيمة الحداثة الشعرية والتحرر الشعري إن لم يكن رؤية واضحة إلى واقع متحرر، تكون المرأة فيه سيدة الثورات، وسيدة الإبداع، وسيدة اللغة الجديدة في عالمنا العربي الجديد.

إن مناخ الحب لديها مناخ استثنائي. تجارب الحب لكل ما تتضمنه من مواقف وسلوكات قد لا تتكرر، إلا أن قصيدة الحب ليس بالضرورة أن تتكرر. قد يتكرر الموقف، لكن ليس بالضرورة أن يتكرر التعبير عن الموقف. هذه المسألة تتوقف على الشاعر، وسعاد الصباح شاعرة الابتكار، الابتكار الذي يغش أحياناً، الابتكار الذي يوقع البعض في التباس، يدفعه إلى الظن أن النص ليس مبتكراً.. وما إن يتمعن فيه، ويعيد القراءة حتى تنكشف الأسرار، وتتدافع التجليات، وتأخذ القصيدة حيزها الإبداعي في مناخ جمالي متميز.

إن الأنوثة في قصيدة سعاد الصباح أنوثة طبيعية، تتوهج بقدر ما تبدو أقرب إلى الفطرة، وتعذب بقدر ما تلامس داخلها الجميل. أعني أنها أنوثة غير مصطنعة، أنوثة تستمد جمالها من بنية تصويرية لغوية وإيقاعية مختلفة. ومن خلال رؤية تستمد من البداهة المثقفة كنهها الذي يضيء كلما أمعن في التبلور.

قد لا تعجب امرأة سعاد الصباح الكثيرين. قد تكال إليها التهم. وقد ترى بعين حاقدة حيناً، وبعين ناقدة حيناً آخر. لكنها في كل الحالات تبقى المرأة المتفردة – المتمردة التي تبحر في سفينة العصر، وتشارك في صنع الحياة.

سعاد الصباح سنديانة عتيقة، جذورها في الأرض، وغصونها في السماء، وصفحات اخضرارها لا تتغير مهما تعاقبت عليها الفصول.

امرأة تكتب، تعتلي المنبر، تنشد الشعر، تصدر الدواوين، تشعرن الاقتصاد (إذا شاءت)، تدوزن الأرقام، وتندفع باتجاه صيرورة الوجود، كأنها منذورة للحلم، أو منذورة للرحيل إلى ميلاد شمسها المقبل.

سعاد الصباح.. بين الكلمة والعطاء

طالب الرفاعي[1]

"ليس في دورهم منافذ على الطريق لتخلل الهواء ودخول الشمس إلا ما ندر، وفتحها عندهم عيب كبير لأنه يسمع منه صوت المرأة. والعجيب أنه بالرغم من هذه الغيرة بحيث لا تُرى ولا يُسمع لها صوت، فإنه ليس لها كرامة عندهم، حتى إن المحدث إذا حدّث جليسه وجاء على ذكر المرأة قال له: أكرمك الله. ولم يقلها لمخاطبه عند ذكْر الحشرات"[2].

هكذا يصف أحد أهم رجالات التنوير في الكويت، الأستاذ يوسف بن عيسى القناعي، منزلة المرأة الكويتية ووضعها المزري في بدايات القرن المنصرم، في مجتمع يقوم في جزء أساس منه على وجود المرأة وحنكتها وأمانتها. فالمجتمع الكويتي الصغير، وقبل ظهور النفط، كان يعتمد على الغوص على اللؤلؤ من جهة، وعلى التجارة الخارجية والسفر من جهة ثانية، وكلا العملين كان يتطلب بالضرورة غياب الرجل وانقطاعه عن بيته وعائلته، ربما لفترة قد تمتد لأربعة أشهر، مما يترتب عليه، بالضرورة أيضاً، نهوض المرأة الزوجة والأم، منفردة، بجميع أعباء الأسرة، ابتداء بتوفير قوت

1- روائي وقاص كويتي حصل على بكالوريوس الهندسة المدنية من جامعة الكويت وشهادة الماجستير في الكتابة الإبداعية من جامعة كنغستون لندن. ترجمت بعض أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ترأس لجنة التحكيم لجائزة البوكر العربية في دورتها الثالثة 2010. مؤسس ومدير الملتقى الثقافي في الكويت. مؤسس ومدير جائزة الملتقى للقصة القصيرة العربية. يعمل أستاذاً زائراً لمادة الكتابة الإبداعية في الجامعة الأمريكية في الكويت.

2- يوسف بن عيسى القناعي، صفحات من تاريخ الكويت، ص 16، 17.

أفـراد أسرتهـا، مـروراً بتربيتهـم، وانتهـاء بالسـهر عـلى وجودهم الإنسـاني.

هـذا الوضـع الغريـب المقلـوب، بتحقير وجـود المرأة، وإسـناد مهمـة رعاية الأسرة لهـا، لم يقـف حائـلاً دون قيـام المرأة الكويتيـة بدورها المشرّف على خير وجـه، والنهـوض بجميـع المهام المسـندة إليهـا بإخلاص وهمة عاليـين، كأفضل مـا يكون العمـل والأمانة.

مـن هكـذا بيئـة محافظـة وقاسـية وجاحـدة لحضور المـرأة ودورهـا جاءت سـعاد الصبـاح. لقـد كان افتتـاح أول مدرسـة للبنـات في الكويت عـام 1937، وكـذا انطـلاق أول مظاهـرة في تاريخ المـرأة الكويتية، بتاريـخ 27 / 6 / 1961، تأييـداً لاسـتقلال البـلاد. لقـد كان ذاك إيذانـاً ببـدء عصر جديـد، عصر تحطم فيـه المـرأة الكويتيـة جـدران سـجنها السـميك، لتخـرج إلى النـور والضيـاء، وتتبـوأ مكانتهـا التـي تليـق بهـا، في شـتى مناحـي الحياة.

سـعاد الصبـاح، كان انطلاقهـا أبعـد، وكان هدفها أعم وأشـمل وأنبـل، فبدءاً بدراسـتها، مـروراً بقصائدهـا ودواوينها الشـعرية، كانت على الـدوام مهمومة بقضية الإنسـان. الإنسـان المجرد، الإنسـان الفرد، دون النظر إلى جنسـه ولونه ودينـه. وربمـا هـذا وحـده يفـسر هبتهـا الكريمـة بموقفهـا السـخي، لحظـة أبـصرت "المنظمـة العربيـة لحقوق الإنسـان" النـور في قبرص، عـام 1983.

يقـول عبدالـرزاق البصـير رحمـه اللـه في إحـدى مقالاتـه: "لقـد كان لأبنـاء جيـلي حلـم عظيـم، وهـو أن تكـون الكويت منـارة للتقـدم والحضـارة يتطلع إليهـا الآخـرون ويقتـدون بها، وبالقـدر الذي تنتشر فيه ثقافة حقوق الإنسـان في بلـدي، وبالقـدر الـذي يتحـول فيـه هـذا الفكـر إلى ممارسـة، فـإن الحلـم ينـزل تدريجيـاً مـن فضـاء الخيال إلى واقع الحقيقة، وتسـطع أضـواء المنارة في

كل مـكان وفي كل الأوقـات"1.

إن تبنـي سـعاد الصباح لمبـدأ قضايا حقوق الإنسـان وتحيزها له وانشـغالها بـه إلى جانـب تقديـم العـون إلى الإنسـان أينـما كان، ليعد ضمن أمـور أخرى، مفخـرة للمـرأة الكويتيـة بوجه خـاص، وللمجتمع الكويتي أجمـع بوجه عام.

إن إيمـان الكتّـاب والشـعراء بوظيفـة الفـن الاجتماعيـة، وقدرتـه السـاحرة عـلى تشـكيل وعـي النـاس، ربمـا يبقـى في الجـزء الأكـبر منـه في عـداد الرهان المغامـرة، الـذي يصعـب جـداً الوقـوف عـلى نتائجـه، وتلمّـس ثمـاره وقطفها. إنمـا لحظـة يقـترن العطـاء السـخي بالاقتنـاع الفكـري، فـذاك يشـكل الترجمة المثـلى لفكـرة احـترام الإنسـان وصـون كرامته.

إننـا نعيـش اليـوم في عـالم صـار عنوانـه الأوضـح الديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان، ولـكي نضمـن لنـا مكانـاً سـامياً ومكانـة مرموقـة، فـلا بـد لنـا مـن أن نجـاري عصرنـا فنلتفـت إلى حقـوق الإنسـان العـربي في أوطانـه، وكـذا إلى حقـوق الإنسـان أينـما كان، خصوصـاً أننـا أمـة الإسـلام، والذي جـاء في محكم كتابـه الكريـم، قـول الله سـبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِـي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْـبَرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَاهُـم مِّـنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّلْنَاهُـمْ عَـلَىٰ كَثِـيرٍ مِّمَّـنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيـلًا﴾2.

إن تفـرغ سـعاد الصبـاح لقضايـا الكتابـة، وقيامهـا عـلى رعايـة المئـات مـن طالبـي العلـم، وتقديـم يـد العـون مـن خـلال تبرعاتهـا الدائمـة لجمعيـات حقـوق الإنسـان ولجانهـا، وكـذا إسـهاماتها في دعـم المشـاريع التـي تنـادي بحقـوق الإنسـان، كل هـذا إنمـا يؤكـد انشـغال هـذه السـيدة الدائـم بفكـرة

1- عبد الرزاق البصير، مقالة منشورة في جريدة القبس الكويتية، 21 / 12 / 1996.
2- سورة الإسراء، الآية 70.

حقـوق الإنسـان، وصـون كرامتـه، أكثر مـن أي موضوع آخر، ولقـد تجلى ذلك واضحـاً في كتابهـا «حقـوق الإنسـان في العـالم المعـاصر»، الـذي يشـكل إضافة مهمـة للمكتبـة العربيـة، وذلـك لنشر وتعميـق الوعي بمبـادئ وثقافة حقوق الإنسـان، خصوصـاً أن الإنسـان العـربي عـانى ولم يـزل يعـاني مـن شـتى أنـواع القهـر والكبـت والتعذيـب والنفـي، ولهـذا الاهتـمام ننحنـي أمـام الدكتـورة سـعاد الصبـاح، ونحيـي همتهـا العاليـة ونشـاطها الـدؤوب، ونرفـع أصواتنـا معهـا هاتفـين: «إلى المزيـد مـن الحريـات للإنسـان العـربي، وللإنسـان في كل مكان».

سعاد.. وكتاب الخلود

عبد الرحمن رفيع[1]

أنـــتِ كنزٌ مـــنَ النَّـــدى والمواهِبْ
وعطـــاءٌ ينبوعُـــهُ غـــيرُ ناضِـــبْ

أنـــتِ حُلْـــمٌ إلى العَيـــانِ تَجـــلَّى
أنتِ نَجمٌ يَهدي الخُطى في الغَياهبْ

بـــينَ جنبَيـــكِ منبَـــعٌ للقَـــوافي
فيضُهُ دائِمُ الشَّـــذى ليـــسَ ذَاهِبْ

يَعـــرُبِيٌّ هَـــوى فُـــؤادِكِ مهـــما
جَارَ جَارٌ أوْ بَيَّتَ الغَدْرَ «صاحِبْ»

يـــا سَـــماءً تَظَـــلُّ تُمطِـــرُ وَرداً
رَغْمِ رِيـــحِ السَّـــمومِ والجَوُّ لاهِبْ

سَـــاعِدٌ أنْـــتِ يا سُـــعادُ وسَـــعْدٌ
هَمُّـــهُ أنْ يُنـــيرَ دربَ النَّجائِـــبْ

قـــدْ وهبـــتِ الجَميـــلَ كُلَّ جميلٍ
ورَعَيـــتِ البَديعَ مِـــن كُلِّ جَانبْ

1- شاعر بحريني. ولد في المنامة ودرس الحقوق في جامعة القاهرة. عمل مراقباً للشؤون الثقافية في وزارة الإعلام البحرينية. له دواوين شعرية عديدة وعرف بمزاوجته بين الفصيح والعاميّ في شعره.

أنـــت بنـــت الكويت ذلـــك دوح
ظلـــه في مشـــارق ومغـــارب
غَيمـــةٌ تُمطريـــنَ في كُلِّ أرضٍ
كَمْ تـــروّى مِما تسُـــحّين شـــاربْ
ســـتظلّينَ يـــا ســـعادُ منـــاراً
للحَيـــارى، يهديهـــمُ كالكَواكبْ
ســـتظلّينَ يـــا أصيلـــةُ دومـــاً
في كتابِ الخُلودِ إحْـــدى العجائِبْ

قل قلباً وأجمل..

ماجدة الرومي[1]

تأتينا من أعماق مملكة بحار الشعر، رافلة بأمجاده، مكللة بالقيم، محجوبة بأسراره، خلفها تعدو الكلمات وتتمايل الأوزان وتترنم القوافي.

تأتينا من بلاط عظيم، صولجانها قلم مضموم بالورد، مرفوع بالحب، وعلامة رفعته ذاك السناء البهي سليل الصباحات الندية في الكويت.

شعرها الزاخر بلآلئ تلك الأعماق.. كم أحبه، هو شعر وأكثر، قل قلباً وأجمل. هو إنسان سما، فسمت معه الدنيا، وكل ما فيها سما، ومن فيها.

1- مغنية لبنانية، سفيرة للنوايا الحسنة لدى الأمم المتحدة، وسفيرة لدى منظمة الفاو. حاصلة على الدرع الوطني للأرز، رتبة فارس من رئاسة الجمهورية اللبنانية عام 1994، درع من الجمعية الوطنية الفرنسية عام 1993، درع التكريم من الملكة نور الحسين في الأردن عام 2002.

سلاح سعاد الصباح.. القصيدة

د. سمير سرحان[1]

تـبرز سـعاد الصباح بقامتها الشـامخة في عالمنا العربي المعـاصر أديبة متميزة في شـعرها ونثرهـا فضلاً عـن تميزها في مواقفها الإنسـانية والوطنية والثقافية.. فهـي قـد كتبـت الشـعر.. كـما كتبـت النـثر، وكتبـت الدراسـات العلميـة كـما كتبت في القوميـة والوطنية.

غمسـت سـعاد الصبـاح قلمهـا في مـداد مـن قلوبنـا ومشـاعرنا.. آمالنـا وأحلامنـا.. لحظـات الإحبـاط الهائلـة العظيمـة فينـا.. ولحظات الفـرح الغامر والنشـوة الهائلـة في قلوبنـا، فعـبرت دائمـاً عـن مكنـون مشـاعرنا.. وعـن كل قضايانـا رجـالاً ونسـاء، فلـم يقتـصر شـعرها عـلى التعبير عـن مكنـون المرأة.. عقلهـا وروحهـا، وإنمـا عـبّرت أيضاً عن الرجل. فليس شـعرها من قبيل الشـعر النسـائي، وإنمـا هـو شـعر عظيـم وكفى.

فسـعاد الصباح.. منذ أن غمسـت النغم في مداد المشـاعر الإنسـانية الرقيقة الجياشـة حينـاً بالفـرح، وبالغضـب حينـاً آخـر، لم تكـن تعـبّر فقط عـن المرأة، عـن كل مـا يجـول داخـل قلبها وعقلهـا من أسرار، وإنمـا كانت تعـبّر أيضاً عن الرجـل الشرقـي بـكل مـا يحملـه عـلى كتفيـه مـن تـراث العنجهيـة والتعـالي

1- كاتـب وناقـد مـصري، تخرج في قسـم اللغـة الإنجليزية وآدابها بكليـة الآداب جامعة القاهرة عـام 1961، حاصل عـلى الدكتـوراه في الأدب الإنجليـزي مـن جامعـة إنديانـا بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة عـام 1968. تـم تكريمـه العديـد مـن الجهـات المحليـة والعربيـة، وحصل عـلى عدد من الجوائـز الأدبية، والتـي من أهمها: جائـزة الدولة التقديريـة في الآداب عـام 2006 عـن مجمل أعمالـه الأدبية.

وثقافة القبيلة، كما تحدثت أيضاً عن مشاعر الرجل ليس فقط تجاه الأنثى.. وإنما تجاه الموقف الإنساني الواحد.

خاضت سعاد الصباح من البداية حربها الشعرية بأسلحة الوزن والصورة الشعرية المفاجئة والجديدة، البسيطة والمركبة في آن واحد، وبتركيب القصيدة المحكم، وباللغة السهلة والمفردات الساحرة التأثير النافذة دائماً كالسهم.. في أعماق القلوب.. وبصوتها الشعري القوي المتجدد الذي يقول هأنذا أحمل إليكم لغة شعرية جديدة.. تعبّر عن مشاعر جديدة.. في عالم جديد.

خاضت سعاد الصباح منذ البداية بهذه الأسلحة الشعرية الحرب دائماً ضد القبيلة، لا قبيلتها فقط، وإنما قبيلة العرب أجمعين.. وقبائل العرب لا تعرف سوى قانون الرجل، وتعتبر خروج نساء القبيلة على هذا القانون نوعاً من التمرد غير المقبول ولا المحمود.

وهكذا كان على سعاد الصباح أن تعود إلى صفوف الرجال من القبيلة، وأن تخنق صوتها الشعري الذي يعبّر عن جموح العاطفة وقوة المشاعر ورهافة الإحساس.. لكنها عملت وبإصرار وعزيمة لا تلين على أن تكسر قانون القبيلة لتصبح ذاتاً متفردة ونسيجاً وحدها.. يرتفع صوتها في كل مكان تطالب باحترام عقلها واحترام قلبها واحترام إنسانيتها.. وألا ينظر أحد إليها كما ينظر إلى إحدى نساء القبيلة.. جسداً جميل التكوين أو وجهاً رائع القسمات.

وعندما فقدت سعاد الصباح وطنها، لأشهر طالت أو قصرت، ناضلت وكافحت كأعتى الرجال، وتجاوز حبها مشاعرها الشخصية ليحتضن كل

ذرة مـن تـراب الوطـن السـليب.. وعندما كتبـت «هل تسـمحون لي أن أحب وطنـي» كانـت رمـزاً للوطنيـة الكويتيـة، بـل وللوطنيـة العربيـة الخالصـة في أعظـم وأعـلى تجلياتهـا.. بـل إنهـا مثـل شـاعر السـيف والقلم محمود سـامي البـارودي، جمعـت بين أبياتها المشـحونة بحب الوطن ولوعتها على اسـتباحته مـن جانـب المعتدي، وبـين النضال الحقيقي عـلى أرض الواقـع، فأخذت تقود المظاهـرات في ميادين العـالم تنـادي بالحـق في الوطن، وفي الصـلاة على ترابه، وتديـن البغـي والظلـم والطغيان.

إن سـعاد الصبـاح التـي تعتـبر في طليعـة شـاعرات العـرب، بـدأت حياتهـا الشـعرية بصـوت رومانـسي لكنـه متمـرد، رفضـت للفتـاة العربيـة أن تكـون مجـرد وجـه أو جسـد جميـل، رفضـت مواضعـات فرضتهـا عليهـا التقاليـد الصارمـة التـي سـلبتها إنسـانيتها وحولتهـا إلى مجـرد فرد مـن الدرجـة الثانية في جماعـة يحكمهـا الذكـور، تلتـزم بمـا تقولـه الجماعـة وتفعـل كـما تؤمـر.. واكتشـفت مـن خـلال روحها الشـاعرة ضرورة تفردهـا.. فتفـردت.. وأصبحت صوتـاً قويـاً أصيـلاً فريـداً يعـبّر عـن العـصر بـكل مفرداته.

الإنسانية بتجلياتها الرائعة

د. عبد الرحمن السميط[1]

أسرد لكم بعض تجاربي الشخصية في مجال الأعمال الخيرية مع د. سعاد الصباح.

كانت الأخت الفاضلة د.سعاد الصباح مثالاً رائعاً في العطاء والبذل في الأعمال الخيرية. وأذكر أنها طلبت مني يوماً أن أقدم لها مشروعاً إنسانياً حتى تتبناه، وفوجئت بها تعلن في الجلسة نفسها تبنيها للمشروع، مكتفية بما قدمتُ من معلومات شفهية. وبذلك تمكنّا من بناء أول مدرسة ثانوية إسلامية للمسلمين في كل موزمبيق الذين يبلغ عددهم ثمانية ملايين مسلم، ونبني معها كل مرافق المدرسة من داخلية ومطعم وغيرها. وكان لهذا المشروع أبلغ الأثر في تعليم أبناء المسلمين وغيرهم في شمال موزمبيق، حيث تخرج العديد من الطلاب الذين أكملوا دراستهم وتخرجوا أطباء ومهندسين ومدرسين.. إلخ.

ويمضي الوقت. وفي يوم من أيام صيف عام 1992 كنت في وسط الصحراء أتنقل بين مخيمات النازحين بسبب المجاعة في شمال كينيا، حيث أصيب

1- داعية كويتي ومؤسس جمعية العون المباشر - لجنة مسلمي أفريقيا سابقاً، ورئيس مجلس إدارتها، حيث تولى منصب أمين عام لجنة مسلمي أفريقيا عام 1981، وواصل على رأس الجمعية بعد أن تغير اسمها إلى جمعية العون المباشر في عام 1999، وهو رئيس مجلس البحوث والدراسات الإسلامية، وقد نال العديد من الجوائز والشهادات التقديرية من أبرزها وسام رؤساء دول مجلس التعاون الخليجي المنعقد في مسقط عن العمل الخيري عام 1986 وجائزة الملك فيصل بن عبد العزيز لخدمة الإسلام والمسلمين عام 1996 ووسام مجلس التعاون الخليجي لخدمة الحركة الكشفية.

ما لا يقل عن مليوني شخص بآثار المجاعة، ويأتيني مندوب من مكتبنا في شمال كينيا يخبرني بأن الدكتورة سعاد الصباح اتصلت بي، وهي تنتظر مني مكالمة في لندن. في الليل وصلت إلى مركزنا في بلدة وجير حيث يوجد أقرب هاتف واتصلت بلندن، وعلى الطرف الآخر كان صوتها متهدجاً كله ألم، تعتصر فيه الكلمات عصراً، وتكاد تنفجر بالبكاء تأثراً وهي تتكلم عن مشاهد المجاعة التي رأتها في التلفاز، وتقول إنها يصعب عليها الأكل أو النوم بعد هذه المشاهد.. ثم سألتني ماذا نحتاج وبخاصة في الأمور التي لا يتبرع لها الآخرون..!

نسيت أنني أعيش في قلب المجاعة، وبلغ بي التأثر حداً كبيراً.

شكرتها على هذه المشاعر الطيبة والإصرار على مهاتفتي وأنا في هذا المكان النائي، وذكرت لها احتياجاتنا، وبخاصة في مجال الإمداد (وسائل نقل وشحن ومخازن.. إلخ)، إضافة إلى الأدوية، فلقد كنا في سباق مع الوقت، إذ كان يموت حولنا يومياً المئات نتيجة أمراض بسيطة علاجها لا يكلف سوى مبالغ قليلة، ولكن عدد المنكوبين كان كبيراً. وبرغم أن المبلغ لم يكن يسيراً، فقد كان جوابها فوراً أن توكل على الله وابدأ بتوفير كل ما ذكرته، وسوف يأتيك المبلغ وأنت في كينيا.

لقد أنقذت د.سعاد الآلاف ممن طحنتهم الكارثة وأطبقت عليهم المجاعة، وجاء تبرعها في وقت نحن بأمسّ الحاجة فيه إلى جرعة دواء لمريض أو لقمة عيش لجائع أو شربة ماء لعطشان، ولا أشك أن الآلاف من الأيدي ارتفعت للسماء تدعو لمن ساهم في إنقاذهم.

ولست بذكر ما كتبت أعلاه أحصي كل ما قدمته د.سعاد من مساعدات عن طريقنا، وإنما أذكر نماذج من الحس الإنساني الرفيع الذي تتمتع به

تجاه إخوانها ممن لم يكتب لهم الله القدرة على الوقوف على أقدامهم في مثل هذه الظروف الصعبة، فكانت هي لهم اليد الحانية التي امتدت لتخرجهم إلى بر الأمان.

وتذكرني د.سعاد بقول الشاعر التميمي:

الحمد لله أن الناس ما زالوا
فيهم لكل ضروب الخير إقبال

الخير يزداد والإيمان باعثه
والمؤمنون لهم جود وإفضال

كم من دار أيتام أنشأتها، وكم من مشروع زراعي أقامته، وكم من بئر حفرتها، وكم من طالب آوته ووفرت له السكن.. وكم من محتاج أهّلته ودرّبته.

هذه قرى أفريقيا وغاباتها، سهولها وجبالها، صحراؤها ومستنقعاتها، تشهد بالخير لمن مدت إليها يد الخير، وساهمت بإخلاص وسخاء في تغيير حياة الآلاف من الفقراء حتى يتمكنوا من الاعتماد على النفس، بل حتى بلغ بالبعض أن يمدوا أيديهم بالمساعدة إلى الفقراء الآخرين بعد أن كانوا هم من المعوزين.

فهنيئاً لمن كان آلاف من الفقراء والمحتاجين والأيتام والأرامل شاهداً له يوم القيامة.

سعاد الصباح كما عرفتها

ليلى شرف[1]

قد كان بوسعي
مثل جميع نساء الأرض
مغازلة المرآةْ
قد كان بوسعي
أن أحتسي القهوة في دفء فراشي
وأمارس ثرثرتي في الهاتف
دون شعور بالأيام.. وبالساعات
قد كان بوسعي أن أتجمّلَ..
أن أتكحّلَ..
أن أتدلّلَ..
أن أتحمّص تحت الشمسِ
وأرقصَ فوق الموج ككلِ الحورياتْ
قد كان بوسعي
أن أتشكّل بالفيروز وبالياقوت
وأن أتثنى كالملكاتْ

1- سياسية أردنية ولدت في بيروت، وهي أول وزيرة إعلام في الأردن وأول امرأة أردنية تعين في مجلس الأعيان، وهي زوجة الشريف عبد الحميد شرف رئيس الوزراء الأردني الأسبق. شغلت مناصب مهمة في الدولة الأردنية، فقد كانت عضو اللجنة الملكية لصياغة الميثاق الوطني وعضو المجلس الوطني الاستشاري، وعضو مجلس أمناء المنظمة العربية لحقوق الإنسان.

قد كان بوسعي ألا أفعل شيئاً
ألا أقرأ شيئاً
ألا أكتب شيئاً
أن أتفرغ للأضواء.. وللأزياء..
وللرحلاتْ
قد كان بوسعي
ألا أرفضَ
ألا أغضبَ
ألا أصرخَ في وجه المأساةْ
قد كان بوسعي
أن أبتلعَ الدمعَ
وأن أبتلعَ القمعَ
وأن أتأقلم مثل جميع المسجوناتْ
قد كان بوسعي
أن أتجنّب أسئلة التاريخ
وأهربَ من تعذيب الذاتْ
قد كان بوسعي
أن أتجنّب آهة كل المحزونين
وصرخة كل المسحوقين
وثورة آلاف الأمواتْ..
لكني خنتُ قوانينَ الأنثى
واخترتُ مواجهة الكلمات..[1]

1- قصيدة (أنثى 2000) من ديوان «في البدء كانت الأنثى».

لقد كان بوسع سعاد الصباح أن تفعل كل ذلك، ولكنها لم تفعل، واختارت لا أن «تواجه الكلمات» وحسب، بل تصدت لتحديات عديدة أخرى «فغضبت» و»رفضت» و»صرخت» في وجه مجتمعها الخاص ومجتمعها العربي الواسع، لا صرخة الكراهية والتنصل بل صرخة الانتصار له والدعوة للحياة والتطور والإشراق. لذلك شكّلت سعاد الصباح ظاهرة مشرقة خاصة في حياة المرأة على امتداد الوطن العربي.

بنت الخليج العربي وابنة أسرة حاكمة، كان يمكن لها أن تغرق في واقع ولادتها ومحيطها وتنعم بهما، دون أن تعنى بقضايا مجتمعها، ولكنها اختارت طريقاً آخر فتفاعلت مع محيطها الوطني الكويتي ومجالها القومي العربي بشعور من المسؤولية الشخصية ووعي لواجب المواطنة الفاعلة المسهمة في نماء الوطن مهما ضاقت مساحات الحركة فيه أو اتسعت.

منذ البدء لم تسلك الدكتورة سعاد السبيل السهل ولم تتجه إلى الدراسة السهلة من أجل الترف الثقافي، فاختارت مجالاً يساعدها على الإسهام في مسيرة النماء العام، ودرست الاقتصاد وكتبت فيه وعنيت بمسألة اقتصاد النفط، وهي تعي أهمية التخطيط الواعي البعيد المدى للتنمية وربطته بالقوى العاملة، وشملت في دراساتها المختلفة دور المرأة في هذه القوى العاملة، وكذلك في مشاركتها في عملية التنمية العامة للوطن.

لقد استطاعت الدكتورة سعاد أن تمثل المرأة الحديثة على أكثر من وجه، في مجتمع محافظ ينتظر من بنت العائلة الحاكمة أن تجلس في قصرها وترتاح إلى حظها.

وإذا كانت قد واجهت الكثير من الصعوبات وتخطت الكثير من العقبات،

فـإن نضالهـا مـن أجـل تحقيق ذاتها ولعـب دورها هو واحد مـن الأوجه التي عكسـت سـمات العصر الحديث ومتطلباته في حياة المرأة العربية ووعيها.

وإذا كان اقتحامها لمجـال الكتابـة في الاقتصـاد والتنميـة وجهـاً مـن الوجوه التـي مثلـت عبرهـا إرادة المـرأة العربيـة للإسـهام المبـاشر في شـؤون وطنهـا العامـة والتأثـير في مسـار تطـوره ونمائـه، فإن خوضهـا في مجال الشـعر عكس جانبـاً آخـر مـن جوانـب الشـخصية النسـوية الحديثة.

لعـل توجهها إلى الشـعر كان في البـدء تعبـيراً عـن موهبـة أحسـت بهـا فأطلقتهـا، ولكنـه كان أيضـاً واسـطة لتنقـل بعض فكرهـا وكثيراً مـن وجدانها. اختـارت بشـجاعة مجـال «الغـزل»، وعـبّرت بجـرأة وبصراحة وانفتـاح وحرية عـن مشـاعر امـرأة في العلاقـات العاطفيـة دون أن تخشى مـن ردود الفعل في مجتمعهـا القريـب أو البعيـد. غـير أن هـذا التعبير الأنثوي الـذي حمل الحب العميـق والتفـاني والتوحـد بالآخـر، حمـل أيضـاً وعيـاً واثقـاً بنفسـه للحـق في الانعتـاق مـن قيـود باليـة تُصـكّ للحيلولـة دون تعبـير المـرأة عـن خلجـات روحهـا ولواعـج وجدانهـا. كـما أنـه لم يكـن دائمـاً مسـتكيناً ضعيفـاً خاضعـاً بـل عـبّر في بعـض القصائـد عـن ثورة عـلى ما ألفنـاه مـن العلاقات بـين المرأة والرجـل بغيـة إرسـاء قواعـد جديـدة لهـذه العلاقـة، ولما يمكـن أن تقبـل بـه المـرأة العربيـة أو ترفضـه مـن تقاليـد وممارسـات لم تعـد قابلة للصمـود أمام واقـع المـرأة العصريـة ووعيهـا لذاتهـا ولدورهـا وتطلعاتهـا. تقـول في قصيـدة (كـن صديقي):

فلماذا -أيها الشرقيُّ- تَهتمُّ بشَكْلي؟
ولماذا تُبصِرُ الكُحْلَ بعينيّ..
ولا تُبصِرُ عَقْلي؟

إنني أحتاجُ كالأرضِ إلى ماء الحوارْ
فلماذا لا ترى في معصمي إلا السِوارْ؟
كُنْ صديقي..
ليس في الأمر انتقاصٌ للرجولَةْ
غيرَ أن الرجلَ الشرقيَّ لا يرضى بدورٍ
غير أدوار البطولَةْ..
فلماذا تهُمِلُ البُعْدَ الثقافيَّ..
وتُعْنىَ بتفاصيلِ الثيابْ؟1

وعندما تعرض بلدها لهزة مصيرية لجأت إلى وجدانها الشعري الثري لتعبر بالحب نفسه وبالثورة ذاتها عن قلقها على بلدها وتعلقها به:

هذه الأرض التي تدعى الكويت
هبة الله إلينا..
ورضاءُ الأب والأم علينا..
كم زرعنا أرضها نخلاً وشعرا
كم شردنا في بواديها صغارا
ونخلنا رملها شبراً فشبرا
الكويتيون باقون هنا
وجميع العرب الأشراف باقون هنا
الكويتيون باسم الله.. باسم السيفِ
باسم الأرض، والأطفال، والتاريخ
باقون هنا..2

1- قصيدة (كن صديقي) من الديوان نفسه.
2- من قصيدة (بطاقة من حبيبتي الكويت)، ديوان «برقيات عاجلة إلى وطني».

غير أن القلم لم يكن وحده طريقها للتعبير عن ذاتها واهتماماتها وقناعاتها. فإيمانها بتعميق الروابط القومية والتوجه نحو التكامل العربي والتواصل القومي، وقناعاتها بأن مؤسسات العمل العربي المشترك على صعيد المجتمع المدني وسيلة أساسية لتحقيق التواصل بين المفكرين والمثقفين النشطاء، وبأن لقاءات هؤلاء وحواراتهم ومناقشاتهم هي السبيل إلى تخطي الحواجز المصطنعة التي فرقتنا، كل ذلك وجّه اهتمامها إلى ما يمهد الطريق إلى هذا الهدف، ولذا انضمت إلى عضوية عدد من المؤسسات القومية التي اعتبرت أن غاياتها ترسّخ بعض قواعد النهضة العربية الحديثة وتعمل من أجلها.

التقيتها للمرة الأولى في أواسط الثمانينيات في كنف المنظمة العربية لحقوق الإنسان، وسرعان ما عرفت من مؤسسيها كما اكتشفت أنها ليست عضواً في مجلس أمنائها ولجنتها التنفيذية وحسب، بل هي بمثابة الراعي لهذه المنظمة الوليدة في ذلك الحين، لأنها كانت تعتبرها طليعة حركة حقوق الإنسان الناشئة في الوطن العربي في أول تحرك جدّي للمثقفين العرب نحو تجسيد عناصر الديمقراطية الحقيقية في بلادنا. لذلك أعطت الدكتورة سعاد لهذه المنظمة دعمها الفكري والأخلاقي والمعنوي والمادي، وقدمت لها منذ البدء وفي كل مرحلة من مراحل نشأتها ونموها كل ما تستطيعه .

ولعلي وجميع من يشارك بفاعلية في المنظمة العربية لحقوق الإنسان في النصف الثاني من عقد الثمانينيات، نذكر لها بالإعجاب والعرفان بل والدهشة كيف تقدمت بالعون السريع والسخي وبلا تردد لإنقاذ المنظمة عندما شعرت أنها تتعرض لخطر الاهتزاز والوهن.

ومـن قناعاتها ذاتها كانـت عضويتها في منتـدى الفكـر العـربي ومجلـس أمنائـه ولجنتـه التنفيذيـة. فقـد كان المنتـدى ولا يـزال جامعـاً لعـدد كبير من أبـرز المفكريـن والمثقفـين والنشـطاء مـن جميع أنحـاء الوطن العـربي، وغايته بحـث قضايـا الأمـة وأزماتهـا والإسـهام في طـرح الحلـول والبدائـل، والتواصـل مـع صنـاع القـرار مـن أجـل المشـاركة في تحقيـق النـماء لمجتمعنـا العربي.

هنـاك اجتمعنـا مـرة أخـرى بـل مـرات، وهنـاك عرفتها مـرة أخـرى، واحدة مـن قياداتـه تدعـم المنتـدى بحضورهـا المميـز فكريـاً وحضاريـاً، وتسـهم في إنجـاح كل أوجـه نشـاطه ومشروعاتـه.

وفي أوائـل التسـعينيات خطت الدكتورة سـعاد خطوة أخـرى لتعزيز الثقافة العربيـة ودورهـا، فأسسـت «دار سـعاد الصبـاح للنـشر»، لتسـاعد في نـشر الكتـب وتعميـم المعرفـة خدمـة لعمليـة التنمية الشـاملة. واللافـت للاهتمام أن مضاعفـات الحـرب في الخليـج لم تكـن قـد همـدت بعـد، ولا الأوضـاع في الكويـت قـد اسـتقرت وعـادت الحيـاة فيهـا إلى طبيعتهـا، ولا سـعاد الصبـاح قـد اجتـاز وجدانهـا الأيـام الحالكـة. ومـع ذلـك تمسـكت بإيمانها بـأن الثقافة والفكـر قـادران على أن يكونا البلسـم الشـافي فكرياً وحضاريـاً وأخلاقياً للأزمة القاتلـة التـي أصابت السـاحة العربية. وبدأ نشـاط دارهـا الثقافية العتيدة في مـصر ثـم انتقلـت إلى الكويـت حالمـا تمكنت مـن ذلك.

آمنـت الدكتورة سـعاد الصباح بالمـشروع النهضوي العـربي الحديث، وكانت قناعتهـا أنـه بالفكـر والعلـم والتعليـم والثقافـة، وبالديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان، وبمأسسـة المجتمـع المـدني، وبالمشـاركة في مسـيرة النـماء يمكـن أن نسـهم في تحقيـق هـذا المـشروع المصـيري.

وارتبـط إيمانهـا بالمـشروع النهضـوي بعروبتهـا الأصيلـة التـي لم تهتـز يـوم أصيـب وطنهـا الصغـير بكارثتـه، برغم ما سـاد الجـو العربي من سـموم كادت تـودي بالمسـتقبل القومي المشـترك.

اسـتطاعت أن تضـع الأمـور في نصابهـا، وترفّعـت عن الانجـراف وراء الإدانة العريضـة لقوميتهـا، وانـبرت للدفـاع عـن بلدهـا، الـذي هـو جزء مـن روحها، ولحشـد الطاقـات من أجله، ولكنها لم تكفر بعروبتهـا، فمنطلقها كان ولا يزال منطلقـاً إصلاحيـاً لا تدميريـاً، وهـي تعـي، بسـبب إيمانهـا بالفكـر وبالمـشروع الحضـاري، أن حياتنا واحدة ومسـتقبلنا مشـترك ومشروعنـا الحضاري لا يمكن أن يسـتكمل إلا بتخطـي الآلام والكـوارث مهـما عظمـت للوصـول إلى أهداف الأمـة مجتمعـين متكاتفـين، ودور المثقفـين في ذلك عظيم.

تقـول في حرقتهـا عـلى مـا حـدث في أوائـل التسـعينيات، معـبّرة عـن حبهـا لبلدهـا وارتباطهـا بانتمائهـا العـربي بالصلابـة التـي لمسـناها فيهـا في مجـالات أخـرى، وبالحـب الـذي عرفنـاه عبر شـعرها:

إنني بنت الكويت
بنت هذا الشاطئ النائم فوق الرمل
كالظبي الجميل
في عيوني تتلاقى
أنجم الليل وأشجار النخيل
إنني بنت الكويت
هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب؟
إن جسمي نخلة تشرب من بحر
العرب

وعلى صفحة نفسي ارتسمت
كل أخطاء وأحزان
وآمال العرب[1]
وتقول في قصيدة أخرى:
كويت كويت
لقد قرر العالم العربي اغتيال الكلام
وقرر أيضاً
إبادة كل الطيور الجميلة.. كل الحمام
ونحن طيور مشردة لا تريد سوى
حقها بالكلام
ونحن طيور مثقفة لا تطيق..
غسيل الدماغ وكسر العظام
ونحن حروف مقاتلة..
سوف تهزم بالشعر كل عصور
الظلامْ[2]

وأخيراً، فلعل الحديث عن الدكتورة سعاد لا يكتمل دون الكلام عن بعض ملامح شخصيتها، وأية شهادة شخصية تبقى ناقصة إذا لم تربط سعاد الصباح المتحركة الناشطة الكاتبة، بسعاد الصباح الإنسانة، فالكثيرون يعرفون عنها، ولكنّ القليلين يعرفونها.

إن أبرز عناصر شخصيتها كما لمست هما الخجل والتواضع اللذان يخبئان الصلابة، ووضوح الهدف الذي يتجلى في نشاطها، والهدوء الذي يخفي

1- من قصيدة (إنني بنت الكويت)، الديوان نفسه.
2- من قصيدة (وردة البحر)، ديوان «برقيات عاجلة إلى وطني».

الثـورة الكامنـة في وجدانها.

فهـي لا تغضـب في نقاشـها، ولا تتـسرع في أحكامهـا. وأول انطبـاع تأخـذه عنهـا بسـاطة المظهـر بمـا يليـق بجـو الاجتماعـات أو اللقـاءات أو المؤتمـرات التـي تحضرهـا، فهـي في حياتهـا اليوميـة تعتـبر نفسـها امـرأة عاملـة جادة في عملها .

طابعهـا في تصرفهـا وفي أحكامهـا الترفـع عـن الصغائـر، وكم أزمـة صغيرة أو كبـيرة مـرت بهـا، وعـرف بها بعـض أصدقائهـا وتوقعـوا ردة فعل عنيفـة منها أو غضبـاً أو تشـهيراً وانفجـاراً، ولكنهـم راقبوهـا وهي تتجـاوز الأخطاء وترتفع عـن الصغائـر وتعالـج المشـكلة بكياسـة وتهذيـب وذوق، فتحفـظ كرامـة من أخطـأ، وتكسـب كرامتهـا، واحترامه واحـترام غيره.

ولعـل هـذه الصفـة بالـذات هـي التي تسـاعدها عـلى الاتزان في السـاعات الحالكـة والأزمـات الكـبرى، وعـدم التطـرف في الإدانـة والعـداء وتغليـب التسـامح حيـث يكـون المجـال مفتوحـاً لذلـك.

هـذه هـي سـعاد الصباح كـما أعرفهـا صديقـةً عزيزة وامـرأة عربيـة نادرة، تؤمـن بقضيـة فتعطيهـا كل ما عندهـا من جهد ودعم، من ذاتهـا، من فكرها، ومـن موقعهـا المعنوي والفكـري والاجتماعي.

سعاد الصباح.. إشراقةُ فكرٍ وسوسنةُ حبٍّ

ليلى محمد صالح[1]

مـن أيـن أبـدأ الحديـث عـن منـارة ثقافيـة كويتيـة اسـتثنائية في طموحهـا وقراراتهـا؟

مـن أيـن أبـدأ الحديـث عن امـرأة أسـطورية تتوهج إيمانـاً بالشـعر وقضية الإنسـان وهـمّ الوطـن ونـشر الثقافـة والحـب الجميـل المشـعّ الـذي يجمـع حولهـا دائمـاً العديـد مـن المؤيديـن والمحبين.

قـد أجـد صعوبـة وأنـا أكتـب عن إنسـانة اسـمها مع قلـة لامعـة محفور في الوجـدان.. إنسـانة علّمتنـا كيـف نحـب الحـب العميـق بشـاعريتها الشـفّافة الجميلـة.. إنهـا شـجرة العطـاء.. تحيطنـا جميعـاً بيـد الحنـان.. فهـي درع للجميـع في كل الأزمـات.. إنهـا سـعاد الصبـاح.. الشـاعرة الرقيقـة العذبـة.

ولعـلّي في هـذه العجالـة لا أسـتطيع أنْ أفيَ شـخصيتها حقّها مـن خلال هذه الومضـات لملامحهـا الثرية ولتنـوّع عطائها وخصوبة هـذا العطاء.

منـذ أن عرفـت سـعاد في ديوانهـا الأول «إليك يا ولدي» لم تتبـدّل ولم تتغير،

1- أديبـة وباحثـة وكاتبـة قصصيـة كويتيـة، حاصلـة عـلى بكالوريـوس الآداب في اللغـة العربيـة من جامعـة بيروت، وحصلـت عـلى دكتـوراه شرف تقديريـة عالميـة من جامعة الحضـارة الإسـلامية المفتوحة، وعلى دبلوم الدراسـات العليـا مـن جامعـة الكويـت، والماجسـتير مـن جامعـة الكويـت. حـازت عـلى عـدة جوائـز ودروع تكريميـة مـن خـلال أنشـطة مهرجـان القريـن الثقـافي عـن المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، ودرع تكريميـة مـن مهرجـان الـرواد العـرب الـذي عقـد في القاهـرة تحـت رعايـة الجامعـة العربيـة، كـما حازت عـلى جائـزة الدولة التقديريـة لعـام 2016.

وبقيت حتى ديوانها «خذني إلى حدود الشمس» لؤلؤة ثمينة ومنارة مضيئة.. بقيت سعاد امرأة تتفجر أحلاماً وحبّاً وطموحاً.. أحبَّها الناس والأصدقاء لخلقها الرفيع الذي يزيده التواضع رفعة.. وتعاليها عن الصغائر.. ولمثاليّتها المتميزة ومواقفها النبيلة.

إذا قالت سعاد نعم فعلت.. وكثيراً ما تفعل دون أن تقول، بل تستر الفضل ولا تعلنه أو تجاهر به كغيرها.. إنها المثل الأعلى للإنسانية الحقة.

وهي لا تسرف في الكلام إلا في ما يستحق، من خلال صوتها الهادئ الرزين الذي تكسوه الابتسامة الجميلة.. وحضورها الرومانسي المثقف على الرغم من أن بعض قصائدها اشتهرت بالثورة والتمرّد والتحدي والرفض.

كنت في المرحلة الجامعية أبحث عن (أدب المرأة في الكويت)، وحين وصلت إلى سعاد الصباح شعرت وأنا أقترب منها للمرة الأولى أني أعرفها منذ زمن طويل..

شخصيتها ساحرة قادرة على أن تجذب إليها كل من يدنو منها، فهي تمتاز بجاذبية متناهية.. شفافة.. نقية.. قريبة إلى النفس.. رقيقة.. ودودة.

أعجبت بِطلّتها المشرقة وحضورها الهادئ الجميل القلق.. قلق المبدعين، وكلامها القليل.. وتواضعها الرائع وأفكارها الصلبة، فهي لا تخضع منذ البدايات إلا لقناعتها.. وقد لمست أن لها رؤيا بعيدة لمستقبل مشرق مضيء بالتفاؤل وطموح كبير لا يقف أمامه موج البحر الهادر.. أيضاً تفانيها حتى الموت في خدمة الكويت وأهلها وخدمة الثقافة ودعمها.. من أجل غد أفضل، والحرص على تغيير الواقع في الغد المقبل.

ولم تكن سعاد حينها قد انطلقت على مستوى الخليج والوطن العربي

والعالمي.. لكنها كانت غارقة في الشعر حتى الثمالة.. غارقة في الدراسات العليا.. وفي بيتها وأولادها.

منذ ذلك الوقت (1987) أحسست أني ارتبطت بها بصداقة.. صداقة قائمة على إعجابي الشديد بشعرها وبتميز خلقها ووداعتها وتسامحها ووفائها للصداقة والقِيَم الإنسانية.

وحين مرّت السنوات بنا.. بحلوها ومرّها.. كان اسم سعاد.. يكبر.. ويكبر.. يلمع.. ويلمع.. ويتألق.. في كويتنا المضيئة.. وفي العواصم العربية والعالمية.. على المنابر الثقافية والمنصات الشعرية..

سعاد الصباح متميزة عن الكثيرين بأن عطاءها لم يكن في حقل متخصص بعينه، بل يشمل حقولاً كثيرة: الشعر.. الاقتصاد.. السياسة.. هموم الوطن.. وقضايا الأمة العربية.

ثم بدورها الكبير في تأسيس ودعم الكثير من المؤسسات الثقافية، فقد قامت بإعادة طبع مجلّدات مجلة «الرسالة» التي كان يصدرها الأديب أحمد حسن الزيات.

كما انطلقت أعمال ونشاطات دار سعاد الصباح للنشر بعد التحرير مباشرة. وخصصت سعاد جوائز للشباب المبدعين: جائزة سعاد الصباح للإبداع الأدبي والفكري، وجائزة عبد الله المبارك الصباح للإبداع العلمي، وجائزة لشباب الأرض المحتلة. وهذه الجوائز تعتبر نقطة حضارية في عامل الثقافة والإبداع في عالمنا العربي.

كذلك مبادرتها التي تحمل معاني الوفاء إلى تكريم من هم على قيد الحياة من روّاد الثقافة والأدب في الكويت والوطن العربي. إنها بادرة رائعة

أول من بدأت بها سعاد الصباح، فهي صاحبة السبق في تكريم كبار المبدعين وهم على قيد الحياة تقديراً لإنجازاتهم العظيمة. وقد بدأت بالمفكر عبد العزيز حسين لدوره الرائد في مسيرة الكويت التعليمية والثقافية والسياسية عام 1995، ثم أديب البحرين الأستاذ إبراهيم العريّض عام 1996، ثم الشاعر العربي نزار قبّاني عام 1998، ثم الدكتور ثروت عكاشة في مصر عام 2000، ثم الأمير عبدالله الفيصل سنة 2001.

ولعل أكاليل الورد وقلائد الوفاء التي توّجت بها سعاد الصباح إنجازاتها الثقافية الشامخة، الموسوعة الرائدة التي صدرت عن دار سعاد الصباح في ثلاثة مجلّدات «الثقافة في الكويت منذ بدايتها حتى الآن»، والتي أعدها الدكتور محمد يوسف نجم لتكون أول مسح ثقافي علمي يوثق لمسيرة الثقافة والفنون في دولة الكويت منذ بدايتها حتى الآن.

تقول سعاد الصباح: إنني أعتبر تدوين تاريخ الكويت الثقافي هو عمل الأعمال ومنارة المنارات في تاريخ حياتي الثقافية.

وهذا ليس بغريب على من تحمل مشعل الثقافة والتنوير والتحقيق للعديد من المشروعات التي تخدم الثقافة المحلية والعربية.

سخّرت مالها ووقتها وجهدها لبناء الثقافة في الكويت والوطن العربي، ومنذ زمن بعيد كانت الثقافة شغل سعاد الصباح الشاغل حتى قبل أن يصبح اسمها رمزاً للرعاية والتأسيس والتحديث.

وحين استضفنا مؤرخة ومترجمة الأدب العربي الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي في برنامج مسجّل، قالت: إن سعاد قامت بدعم مشروعي الثقافي للترجمة قبل تأسيس مؤسستها الثقافية «دار سعاد الصباح»، فهي منذ البداية منشغلة بالشعر ومتابعة للحركة الثقافية والفكرية والفنية محلياً

وعربياً وعالمياً.

لقد كانت فجيعة سعاد الصباح بكارثة الاحتلال في أغسطس 1990 فجيعة عظيمة كأهل الكويت جميعاً، فقد تطوعت منذ الساعات الأولى لصد الغزو، ووقفت مع أبناء بلدها واضعة كل ما تملك من قدرات معنوية ومادية تحت تصرف قضية الكويت العادلة ولإيصال صوت الكويت إلى المحافل الدولية. أقامت الأمسيات الشعرية، ووقفت على فوهة بركان حارق تلقي الشعر، فكان لأبياتها ومفرداتها طعم الدم والحرقة والغضب. تقول وهي تتساءل بغضب لاهب:

مَن قتل الكويت؟
ينفجر السؤال في عقلي وقلبي
كيف ستموت نخلة بلا سبب؟
هل أعجميٌّ يا ترى قاتلها؟
أم عربيٌّ جاء من أرض العرب؟

وفي قصيدة (بطاقة معايدة لحبيبتي الكويت) بينت الشاعرة مدى تماسك وتلاحم الشعب الكويتي الذي يقف دائماً في صف واحد في وجه كل طامع غادر:

نحن باقون هنا، نحن باقون هنا
هذه الأرض من الماء إلى الماء لنا
ومن الآه إلى الآه لنا
كل دبوس إذا أدمى بلادي
هو في قلبي أنا.

تلك هي سعاد العربية الهوى والفكر، الكويتية حتى العظم، التي أحبّت

الكويـت حبّـاً اخـترق شـغاف قلبها ونبضها.. ونذرت نفسـها لخدمـة وطنها في كل مواقع المسؤولية.

وإذا مـا تحدثنـا عـن الشـعر في الكويت فلا بد أن نذكر اسـم سـعاد الصباح لؤلـؤة الكويـت والخليـج.. لقد أصبح اسـمها ملازماً للشـعر الكويتـي والعربي. ولعـل المرتحـل داخـل العـالم الشـعري لها مـن خـلال كتاباتهـا وقصائدها قبل وبعـد فجيعـة الاحتـلال، يكتشـف دون عنـاء أن أهـم معـالم هـذا العـالم هـو حـب الوطـن الـذي يحتـل مسـاحة كبـيرة في عالمهـا الشـعري، بـل إنـه يحتـل القمـة باعتبـاره المـلاذ الدافـئ الـذي تلـوذ بـه وترتاح بـين أحضانـه مهما طال الترحـال. تقـول الشـاعرة: «كلـما أعـود شردتنـي الريـاح وتعقبتنـي العاصفـة وتقاسـمتني الـدروب إلى أحضـان أمنـا العظيمـة الكويـت، وأختبـئ في جوف أول صدفـة تقابلنـي عـلى شـاطئ البحر».

بعـد الحـزن الكبـير للوطـن الغـالي جـاء الحزن الثـاني للشـاعرة لوفـاة رفيق دربهـا الراحـل الشـيخ عبدالله المبـارك الصباح طيب الله ثراه، الـذي كان له دور كبـير في بنـاء الكويـت الحديثـة والذي رثته في ملحمة الوفـاء الكبير «آخر السـيوف». تقـول وهي ترثي سـندها الذي فـرش لها الـدروب بالحب والحنان وبنجـوم العلم والخـير والعطاء:

أأبا مبارك.. كنت أنت قبيلتي
وجزيرتي.. والشاطئ المسحورا
يا خيمتي وسط الرياح من الذي
سيلمّ بعدك دمعي المنثورا
يا من ذهبت، وما ذهبت، كأنني
في الليل أسمع صوتك البلورا

أنت الربيع فلو ذكرتك مرة
صار الزمان حدائقاً.. وعبيرا

وبعد،

فسعاد الصباح هي موسيقى الشجن وسمفونية الحب الذي يشعل الوجدان بكل ما يمس القلب من حب.. الشعر عندها مرآة ترى فيها أبعاد روحها.. تفتح من خلالها آفاقاً شاسعة من الشعر بلغة آسرة وبقصائد حالمة.. تخاطب وجدان الإنسان وتغوص إلى أعماقه.. فالإنسان برغم كل الظروف الذي تحيط به وتحيله إلى شعلة توتر وقلق هو في داخله إنسان له عواطفه وأحلامه، ولا أحلى ولا أجمل حين يخاطب الشاعر إنسانية الإنسان: «الشعر هو الملح الذي يعطي العواطف مذاقاً فتكون أحلى مائدة في رحلة الحياة».

الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح قارورة عطر تعطر أرضنا والفضاء.. راية كويتية ترفرف عالياً فوق منابر الشعر الكويتي والشعر العربي. وليت تكريمها هذا يجزيها بعض حقها لقاء ما قدمت للثقافة والمثقفين.

مدّ الله في عمرها، ومنحها الصحة والعافية لتواصل عطاءها وإثراءها لحياتنا الفكرية والثقافية والأدبية.

وهل تحتاج سعاد الصباح إلى شهادة؟؟

حسن صبرا[1]

1967

جمال عبد الناصر، أم كلثوم، سعاد الصباح، 5 حزيران، دراستي للثانوية العامة في القاهرة وما اختزنته من ذكريات مصرية هي الأجمل في عمري شاباً في الـ 18 منه.. كلها التصقت بذاكرتي لأفسر أول مرة سمعت فيها باسم سعاد الصباح، حين علمت، ولست أدري قراءة من صحف مصرية، أو نتيجة إحدى (حشرياتي) التي دفعتني للصحافة فيما بعد، أن كوكب الشرق أم كلثوم أطلقت من منزل عبدالله المبارك في القاهرة -ربما في جاردن سيتي- حملة لدعم المجهود الحربي في الجمهورية العربية المتحدة، لتواكب في هذه الحملة ما قررته الدول العربية مجتمعة في قمة الخرطوم في أغسطس (آب) 1967 لدعم هذا المجهود بمبلغ وصل إلى 95 مليون جنيه سنوياً لمصر وحدها. وجمال عبد الناصر الخارج من النكسة يحمل تفويضاً جماهيرياً هائلاً في طول البلاد وعرضها فرض منه لاءاته الأربع: لا صلح، لا مفاوضات، لا اعتراف بالعدو الصهيوني، لا تفريط بحق الشعب الفلسطيني.

1- صحفي لبناني أنشأ مجلة "الشراع" وتولى رئاسة تحريرها في 15 يناير/كانون الثاني 1982. نال جوائز عدة بعد تحقيق "إيران غيت" الذي كشف فيه عن صفقة سلاح أميركية لإيران إبان حرب العراق. حصل عام 1972 على إجازة في التاريخ من جامعة بيروت العربية، وفي العام التالي نال دبلوم الماجستير في التاريخ من جامعة القاهرة.

والذاكرة حملت أيضاً أن مبلغاً بالملايين تبرع به عبدالله المبارك وزوجته سعاد الصباح لدعم المجهود الحربي. فحضنتُ الاسمَ كطفل يخزن في مكان ما من عاطفته اسماً أو ذكرى أو واقعة يحن إليها ويعود ليستحضرها ومضة في ليل، أو قطرة ندى في عطش، أو رحيق عطر في مخزن عتيق قتلت هواءه النقي أدخنة لفافات التبغ المنفوثة.

2000

وكلما ذكر اسم سعاد الصباح الآن يتبين كيف تمكنت هذه الفتاة المرأة الشاعرة الأديبة الشيخة من تجسيد كونها ابنة البيئة التي أطلقتها فيما بعد علماً من أعلام الكويت والعروبة كلها.

سعاد الصباح وفية لأول جمهورية نشأت في الكويت عام 1756، والوصف ليس من عندي، بل من وثائق بريطانية رسمت حدود دولة الكويت الحالية تحت عنوان جمهورية الكويت، وإثر مسح سياسي وجغرافي وإنساني لتلك المنطقة البحرية من الجزيرة العربية عند ساحل الخليج العربي.

وهي ابنة آل الصباح الذين أنشؤوا تلك الجمهورية تحت اسم إمارة الكويت فيما بعد، ثم دولة الكويت الآن، وفيها كل مقومات النظام الجمهوري الذي تحكمه أسرة الصباح بمفاهيم تجمع بين الشورى والديمقراطية والملكية وعلاقات الإنتاج الأسرية كما الاحتكارات النفطية وما ينتج عن هذا كله من غنى في التنوع سمح بأن تكون الكويت كما هي اليوم.

سعاد الصباح نتيجة ذلك هي ابنة منارة الكويت في الخليج العربي

والجزيـرة العربيـة والوطـن العـربي، والبعـض يعكـس الآيـة لـيرى في الكويت منـارة ثقافـة عربيـة وأسـلوب حكـم لم يسـجن ولم يقتل ولم ينـفِ ولم يرهب، حتـى إذا انتفـت منّـة الادعـاء فيه فهي شـهادة لـه بأن هذا كله مـن طبيعته، فيضـاف إلى مزايـا الكويـت أيضاً مزية الأصالـة التي حافظ الكويتيـون عليها.. وربمـا بمبالغـة تخـشى عليهـا من شـدة التمسـك بها.

ولـو يسـترجع القـارئ العربي كيف أنه كان يتسـابق مع أقرانه لكسـب عدد مـن مجلـة العـربي، وهـي الكتـاب الشـهري المنـوع الـذي جـاء إحـدى وثائق الوحـدة العربيـة الشـعبية، (لاحظـوا أنها صـدرت عـام 1958 بمصادفة ملهمة مـع قيـام الجمهوريـة العربيـة المتحـدة بين مـصر وسـوريا)، في الثقافة كما في المعرفـة العامـة كما في التنوع كما في الاسـتطلاع. وكل شـهر يـزور معها مدينة عربيـة، فإنـه يجب أن يسـترجع منـارات الثقافـة العربية الأخـرى في الكويت، مـن "مجلـة الكويـت" إلى "عـالم المعرفـة" إلى "المـسرح العالمـي"، ومع هؤلاء جميعـاً اكتسـبت الكويـت مكانتهـا، فجاءت سـعاد الصباح نبتاً طيبـاً من هذا الـزرع والـري والحصـاد والثـمار.. وبخاصـة بعـد أن اسـتقطبت الكويت هوى ومعـاش وعطـاء قسـم كبـير مـن المثقفين العـرب، كما أصحـاب سـواعد البناء والحفـر والباحثـين عـن رزق شريـف لأفـواه أطفالهـم تحـت لظـى شمسـها الحارقـة وهوائها الصحـراوي القاري.

إذن

ليـس هنـاك بداية لانطلاقة سـعاد الصباح، فالاسـتمرارية فيهـا في كل شيء.. في الثقافـة وفي الأسرة وفي الـدور وفي العلاقـة مع المثقفـين.. وهنا محطة أخرى مـن محطات السـيدة العربيـة التي هي صـورة كويتية.

لا أحد ربما يعرف الدافع الذاتي الذي جعل سعاد الصباح أسيرة هذا الحب والاعتزاز بالمثقفين العرب، وهم الذين اعتادوا جلد ثورات بأكملها بعد أن يحملوا سيفها وخيراتها، وإن كان الدافع الموضوعي متوافراً بكل المقومات التي تمتلكها سعاد، فإذا الصدمة عميقة في نفسها من هذا العطاء بلا حدود لمشاريع حقيقية أقلها.. وهمية بأكثرها، يأكلها أهل الثقة التي أعطت سعاد ودفعت ثمنها غالياً أقله بالمال وأكثره بالنفس، إخلاصاً وبراءة طفل.

وتكبر سعاد حين تنطوي على ذاتها فترة للمراجعة؛ لا تتراجع ولا تشهّر ولا تطلق تصريحاً ولا تقبل مقابلة صحافية حتى إذا أطلت في الإعلام عادت للأحلام والشعر.

كثيراً ما صدمت سعاد سياسياً ومن سياسيين، ثقافياً ومن مثقفين، إنسانياً ومن أصدقاء ومعارف، لكنها ظلت قابضة على الجمر حتى لو انحرف الآخرون من سياسيين ومثقفين ومن طينة البشر، غفرت بصمتها وسامحت بكبرياء المترفع عن الهبوط إلى دعوى قضائية أو تشهير إعلامي أو حتى شكوى لأصدقاء، فالشكوى لغير الله مذلة، وهي قبل ذلك وبعده إنسانة شفافة الإحساس كالرؤيا كإطلاق الأحلام.

لقد اختارت سعاد الصباح التعب أولاً مع البيئة الاجتماعية التي برغم كل مرونتها في التعامل والنظرة إلى دور المرأة في المجتمع الأهلي في دول الخليج العربي، فإنها استكثرت على سعاد الصباح هذا النهم إلى العلم والمعرفة والثقة بالنفس لتتجاوز بها جميعاً وبغيرها كل موقع يحميها أسرة كان أو ثراء. فسعاد الصباح هي الطالبة المجتهدة، الدارسة الباحثة من مدرسة حليمة السعدية في البصرة إلى جامعة القاهرة إلى جامعة إنجليزية.

الشاعرة التي صقلت موهبتها بالقراءة والدرس والتأثر والملازمة، وهذا صنع لها مكانتها فعادت إيجابياً إلى الأسرة ووضع المال في خدمة الثقافة والإبداع والحاجات الاجتماعية، بينما ركض كثيرون وكثيرات إلى نفاق الأسرة لأجل المال دوساً على القراءة وكل بحث موضوعي وأحياناً الكرامة والذوق.

واختارت سعاد الصباح التعب وسط المثقفين وبعض السياسيين، لا سعياً إلى مكانة تبحث عنها لتنافق، ولا حاجة إلى جاه أو إعلام، وغيرها يبحث عنها لألف سبب وسبب، وليس إرضاء لاندفاعة نحو الضوء أو الحضور وسط الأسماء اللامعة.

وفي تقديري إن التي كانت تستقبل في منزلها سيدة عظيمة كأم كلثوم، وفي حدود مقاييسي لحجم الكبرياء في هذا الوسط الفني - الثقافي والمكانة السياسية التي تمثلها كوكب الشرق، فإنها لا تترك ثغرة لنقطة ضعف تدفعها للبحث عن مكانة في هذه الأوساط كلها.

نعم، تراجعت معارف سعاد الصباح تبعاً لتراجع حجم الكبار موتاً أو انزواء أو انحرافاً أو قناعة.. فلم يكن هذا سبباً آخر لتميزها وكبرها وسط هذا المحيط، بل كان سبباً إضافياً لتفضح فيه انتهازية المثقفين وصغر مساحات الإبداع إلى جانب كبر مساحات الوله بأشياء أخرى، فعانت منهم سعاد الكثير حتى كادت تردد قول أحدهم:

"بالنسبة لتوسكانيني الفنان فإنني أنحني أمام عطائه. أما بالنسبة لتوسكانيني الإنسان.. ثم خلع حذاءه وانهال عليه".

وكم كانت سعاد محتاجة لأن تخلع من قدميها أحذية.. لم تفعلها، ولم تفكر فيها، بل انزوت من إحباط إلى آخر.

وأحسب أن كثيرين ينتقدون سعاد الصباح بسبب حبها للعراق، وتأثرها

بشاعر الحب والثروة والوطن والورد نزار قباني.

وأحسب كما يعرف أبناء العروبة واعتادوا حياة وسماعاً أن نقد سعاد تجاوز المعقول في الشبهات والإساءات، فتلك هي عادة الخلافات العربية.. وهي خلافات بلا أخلاق وأسهل ما يريده الناس هو التقاط شائعة لتحويلها إلى حقيقة.. تسلية وتنفيساً عن حقد وبلاهة في استبعاد العقل وتشاطراً في استحقار الوصف بالمعرفة.

وأحسب أن نقد العرب أحياناً يبدأ من الخبر دون أن يقرأ المبتدأ، فقاعدة الناس في الوصف تبدأ من القبح ولا تبالي بالجمال، أو بتعبير أهل الكيمياء تنظر إلى الجزء الفارغ من الكوب مهما كان هلامياً بسيطاً، وتتجاهل الجزء المليء منه مهما كان شوكة في عيني كل حسود.

نشأت سعاد في العراق لمن لا يريد أن يفهم حبها لهذا الوطن العربي المكون من آلاف السنين، والباقي بإذن الله مثلها أو أكثر. وتربت وسط نخيله في البصرة، وربما ليست ككل فتاة عربية أحبت سعاد أن تنتسب إلى لعبة رياضية، فكانت كرة الطائرة هوايتها، وكانت في فريق ثانويتها الرسمي في واحة جنوبي العراق، حيث طاولت نظرها الشبكة ترمي فوقها كرتها، وطاولت في نظرها النخلة تستلهم منها شعرها.. وغنّت لها كلاماً فيه الرطب كالرطب، فيه الحلاوة كالسكر، فيه العذوبة كماء العطشان. كان هذا قبل صدّام، وسيبقى حب العراق ونخيله والبصرة بعد صدّام. وعندما انقلب صدام على أهل الخليج قلة وفاء وسوء تقدير وهوس زعامة باجتياحه الكويت في 2 / 8 / 1990، فجعت سعاد ولم تهدأ، وكان أولى بالناقدين أن يقرؤوا المبتدأ في أن سعاد عندما كانت عضواً في المنظمة العربية لحقوق الإنسان وافقت على كل كلمة كتبت في بيانات المنظمة

نقداً لسلطات العراق وغيرها دون اعتراض أو مسايرة حتى عندما كانت جيوش العراق تهاجم إيران، وكان المديح أطناناً في كل إعلام العرب.. عدا قلة .

سعاد أحبت العروبة وانتسبت إليها، فأحبت جمال عبدالناصر رمزها، وأحبت في العراق دوره على حدود الخطر، في البوابة الشرقية.

لقد كانت سعاد أول من تبرع بصمت لانتفاضة فلسطين الأولى عام 1987، وكانت أول من أرسل مساعدات لأسر وعائلات بالعشرات داخل فلسطين (كغيرها من بلدان العرب)، فهل هذا يعني أن سعاد اعتبرت المال وسيلة للتقرب من أحد..؟ ومن يستحق إذا كانت سعاد طرفاً أول؟ وبعد..

هل ركضنا كثيراً ولهثنا ونحن نكتب عنها؟ أحسب أن سعاد تمادت في تقبل المخاطر ولم تكن بحاجة لها أو للتعب، لكنها كيمياء التكوين أو جينات الحياة التي تنشأ مع الإنسان، يظل العمر حائراً في أيهما يشكل الآخر؟ سلوكه منها أو إضافات الحياة تطبعها بما قابلت وتعثرت ونهضت واستراحت وحاربت.

سعاد الصباح

أخشى بعد هذا المشوار الجميل كتابة عنك أن يقال: "إن شهادتي مجروحة".. وهي هكذا لشدة الاحترام والاعتزاز.

سعاد الصّديقة

د. هُدى عَبد الناصر[1]

كان أول لقاء بيننا في منزلنا في منشية البكري بالقاهرة في بداية الستينيات. كانت سعاد الصباح قد حضرت وعائلتها للإقامة في وطنها الثاني مصر، في فترة كان الشعور القومي العربي فيها جارفاً، وكان الإحساس العميق بأننا كلنا -المئة مليون عربي في ذلك الوقت- ننتمي إلى وطن واحد.

وبمرور الوقت أصبحت سعاد صديقة للأسرة، شاركتنا أفراحنا وأحزاننا، إلا أن ما عمّق من هذه الصداقة وأكّدها هما الحيوية والطموح اللذان كانا من سماتها، فهي سرعان ما قررت إكمال تعليمها الجامعي، فالتحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة -وهي الكلية التي أتشرف بالانتماء إليها- وكان ذلك موضع تقدير وإعجاب من الجميع.

وعندما تخرجت سعاد في كلية الاقتصاد لم تكتفِ بشهادة البكالوريوس، ولكنها صممت على الالتحاق بالدراسات العليا، ثم نالت شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من إنجلترا.

إن سعاد الصباح بالنسبة لي هي أولاً الصديقة التي قاسمتنا فترة مهمة من حياتنا في مصر، وهي ثانياً الشاعرة التي تستمد كلماتها المعبرة في قوة

1- ابنة رئيس جمهورية مصر الأسبق جمال عبد الناصر، تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وتزوجت من حاتم صادق زميلها بالجامعة، عملت في بداية حياتها في مكتب الرئيس للمعلومات، ثم تدرجت في سلك الجامعة الوظيفي بعد حصولها على رسالة الدكتوراه من لندن وعينت دكتورة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، واهتمت هدى بتحقيق تراث والدها من خطب وتصريحات ووثائق.

ورقة معاً من أعماق المرأة العربية، والتي نجحت في أن تكوّن لنفسها نسقاً شعرياً خاصاً.

فعبر دواوين شعرها المختلفة، (أمنية 1971)، و(إليك يا ولدي 1982)، و(فتافيت امرأة 1986)، و(في البدء كانت الأنثى 1988)، و(حوار الورد والبنادق 1989)، و(امرأة بلا سواحل 1995)، قدّمت سعاد لوحات شعرية متناسقة الألوان، حاولت بها الخروج بالمرأة الشرقية إلى نور الحرية، وعابت فيها على الرجل تركيز اهتمامه بالمرأة الأنثى فقط، دون أن يبذل الجهد الواجب ليكتشف أبعاد إنسانيتها.

وهكذا أصبحت قصائدها رمزاً جميلاً من رموز القصيدة العربية، بما تحمله من أصالة وإبداع وتمرّد على المألوف من القوالب الشعرية، وبما تحمله من عفوية وتأنّق معاً، مما أكسبها اندماجاً فعلياً بين أفكارها وواقعها المعاصر.

الوطن في شعر سعاد الصباح:

في الوطن عند سعاد يذوب الفرد في ضمير المجموع، فيسمو بمتطلباته، ويهتف بحقوقه، ويدافع عن منجزاته وعاداته وتقاليده، وماضيه وحاضره. بثّت الشاعرة كل هذه المبادئ والمعاني عندما ناجت وطنها الكويت في قصيدتها (بطاقة معايدة لحبيبتي الكويت) قائلة:

هذه الأرض التي تدعى الكويت
هي عطر مبحر في دمنا
ومنارات أضاءت غدنا
هي قلب آخر في قلبنا

وقد عبّر شعر سعاد عن مدى الحسرة والألم على ضياع الكويت، وكتبت قصيدة بعنوان (ثلاث برقيات عاجلة إلى وطني) بثت فيها أحزانها وآلامها:

يا من زرعتم في ضلوع شعبي الرماحْ
كيف بوسع عاشق أن يرفع السلاح
في وجه من يحبهم
كيف بوسع العين أن تقاتل الأجفانْ

المرأة والرجل في شعر سعاد الصباح:

سعاد الصباح امرأة ذات قضية كمثيلاتها من النخبة من المثقفات العربيات، فضلاً عن كونها شاعرة أو فنانة. عتابها على الرجل الشرقي عتاب نابع من رغبتها في أن يتفهم الرجل الشرقي عقل امرأته. هي تدعوه أن يكون صديقاً قبل أن يكون حبيباً، وأن يرى فيها ذلك العقل الذي يحركها. فالمرأة الشرقية عند سعاد الصباح أحلامها بسيطة، احتياجاتها مشروعة، مطالبها محدودة، وقد عبّرت عن ذلك في قصيدتها (كن صديقي):

إنني أحتاج كالأرض إلى ماء الحوارْ
فلماذا لا ترى في معصمي غير السوار
ولماذا فيك شيء من بقايا شهريار؟

فقصائدها تعبّر عن رغبتها في إيجاد قاعدة للحوار والتواصل قائمة على الحب والتفاهم في علاقة لطرفين ليس لأحدهما فضل على الآخر. هي علاقة تأثير وتأثّر، وهذا ما وضحته سعاد الشاعرة في إحدى حواراتها الصحافية، إذ قالت إنها لا تميز بين الرجل والمرأة، ولكنها تميز بين إنسان وإنسان، هي تهاجم التخلف لا الرجل ولا المرأة، ومعركتها هي معركة التقدم والتخلص من "الأمية الحضارية"، قضيتها هي حقوق الإنسان

العـربي رجـلاً كان أو امـرأة.

أنا متعبة من ذلك العصر الذي يعتبر المرأة تمثال رخامْ

فتكلم حين تلقاني..

لماذا الرجل الشرقي ينسى حين يلقى امرأة نصف الكلام؟

ولماذا لا يرى فيها سوى قطعة حلوى.. وزغاليل حمام..

ولماذا يقطف التفاح من أشجارها.. ثم ينام؟

هي أيضاً تلوم المرأة العربية إذا ما أسهمت بدورها في ضياع قضيتها أمام الرجل الشرقي، تلومها إذا ما أخفقت في حل معادلة البناء الاجتماعي بينها وبين الرجل على المستويات كافة، المهنية والاجتماعية.

وهي تحث المرأة على العلم، فالعلم وحده هو سلاحها، فيه وحده تحقق ثروتها الحقيقية، وهو يحررها من قيود الاتكال على الرجل، يحررها من التقاليد والعادات الجامدة، "بالعلم تصبح المرأة شريكاً كاملاً في الحياة".

الشباب والطفولة في كتابات سعاد الصباح:

اهتمـت سـعاد بالشـباب اهتماماً كبـيراً؛ سـواء في جملة اهتماماتهـا الأدبية، وحضورهـا المؤتمـرات والمنتديـات الشـعرية والأدبيـة التـي تضـم عـدداً كبـيراً مـن جيـل الشـباب المقـدِّر لشـعرها وفنهـا الإبداعـي، أو في اهتمامهـا برعايـة وتبنـي الإبـداع الأدبي للأدبـاء الشـباب عـلى مسـتوى الوطن العـربي من خلال الجوائـز المختلفـة، وأهمهـا "جائـزة الدكتـورة سـعاد الصبـاح للإبـداع الفكري بـين الشـباب العـربي" في مجـالات القصـة والدراسـات الإنسـانية والروايـة

والشعر، تلك الجائزة التي أسستها الشاعرة بالتعاون مع منتدى الفكر العربي والهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ورصدت لها حوالي 50 ألف دولار لتشجيع المواهب العربية الشابة.

أما الطفولة في كتابات سعاد الصباح الصحافية فهي الأرض الطيبة التي يمكن فيها زراعة كل الأحلام مستحيلة التحقيق، الطفولة عندها هي صناعة المستقبل، فالأمم والشعوب التي لا تصنع مستقبل أطفالها هي أمم وشعوب بلا مستقبل، ويؤكد ذلك قولها في إحدى مقالاتها: "ازرع طفلاً صحيح الجسد والروح، وخذ وطناً صحيح الجسد والروح".

وانتقدت سعاد "التفرقة الطفولية" -على حد تعبيرها- التي تمارسها المؤسسات النقدية الدولية الكبرى ضد أطفال الدول النامية، انتقدت كذلك القمع الجنوني للطفولة في الأراضي العربية المحتلة، انتقدت الفرق الشاسع في الحقوق بين طفل الشمال وطفل الجنوب: "إنني لا أستطيع أن أكتب عن مدامعي حزناً على بعض الأطفال العرب الذين لا يعرفون ما هي الطفولة، ولم يروا في حياتهم شجرة، ولا بحراً، ولا عصفوراً". كما قالت: "ليس من العدل أن ينام الطفل الشمالي على سرير من القطيفة، وينام الطفل الجنوبي على سرير من البكاء".

علاقة سعاد الصباح بالاقتصاد والسياسة:

تؤكد سعاد أنه لا يوجد حاجز بين العلم والأدب، أو بين اختصاصها في علم الاقتصاد وهواية الشعر عندها، مشيرة إلى أن الإنسان لم يعد يعيش بمعزل عن جوانب الإبداع الموجودة في ثقافة المجتمع، أو ثقافات المجتمعات الأخرى، فلا تعارض بين الاقتصاد كعلم حصلت فيه على أرفع الدرجات

العلميـة، والشـعر الـذي يمثـل لها مهربـاً وملجأ مـن أزمات العالم ومشـكلاته.

ولقـد شـغلتها همـوم الوطـن العـربي وقضايـاه السياسـية الكـبرى، وتـأتي في مقدمتها قضية الشـعب الفلسـطيني، فنـددت في كتاباتهـا الصحافية المختلفة بالاحتـلال الصهيـوني الغاشـم لـلأراضي العربيـة المحتلـة، والحصـار الدائـم لمخيـمات الفلسـطينيين في الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة. وانتقـدت كذلـك الاختـلال الشاسـع في ميـزان القـوى الإسـتراتيجي لصالـح إسرائيـل، وطالبـت بالعمـل عـلى تحقيـق تـوازن نـووي في منطقـة الـشرق الأوسـط، طالمـا يمتلك أعداؤنـا هـذا السـلاح.

إن سـعاد الصبـاح -مثـل كل مثقفـة عربيـة تعيـش قضايـا أمتهـا وتشـارك بإيجابيـة في إحـداث التغيـير إلى الأفضـل- تجسـد حجـم الطاقـات العربيـة الهائلـة والكامنـة فينـا، إن اسـتثمرنا جانباً مـن مواردنا في التنميـة الاجتماعية والثقافيـة لمصلحـة المـرأة العربيـة عـلى امتـداد الوطـن الكبـير.

سعاد الصباح.. نخلة تمشي أمام القافلة

د. منى مكرم عبيد[1]

كثيرات في عالمنا العربي من النساء من استطعن أن يبرزن في مجالات الحياة والعمل، بل ويتفوقن على أقرانهن من الرجال. وهناك فئة أخرى أقل استطعن أن يتركن بصمة في تاريخ حركة نهضة المرأة العربية وسعيها للتحرر رافضة للسياق الثقافي الاجتماعي السائد، الذي يكبل المرأة ويصر على وضعها في خلفية الصورة وعلى هامش الحياة:

هذه بلاد لا تريد امرأة رافضة
ولا تريد امرأة غاضبة
ولا تريد امرأة خارجة
على طقوس العائلةْ
هذه بلاد لا تريد امرأة
تمشي أمام القافلةْ

(خذني إلى حدود الشمس)

وهنالك فئة نادرة من النساء العربيات استطعن أن يمتلكن القدرة على

1- أستاذة العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وشغلت مناصب عديدة، منها خبيرة للبنك الدولي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، لها أيضاً مؤلفات عديدة بالإنجليزية والعربية والفرنسية، وحصلت على وسام جوقة الشرف برتبة ضابط من الرئيس الفرنسي ساركوزي وذلك لدعمها للعلاقات المصرية الفرنسية. وكانت عضواً بعدد من الأحزاب المصرية منها الوفد، والغد، والمصري الديمقراطي الاجتماعي. وهي بنت أخي السياسي البارز مكرم عبيد. ولدت في عشرين مارس بمحافظة قنا سنة 1943 في صعيد مصر. أخذت من عمها الاهتمام بالعمل السياسي والشأن العام، ولها كتاب عنه بعنوان "مكرم عبيد مواقف وكلمات" رصدت به أبرز المواقف الحياتية له، وحاولت أن تستكمل مسيرة حزب الوفد من بعده، فكانت أول امرأة تشغل منصباً بالهيئة العليا للحزب.

التفـوق والإنجـاز، إلى جانـب روح المبـادأة والشـجاعة في الدفـاع عـن حقـوق المـرأة ومكانتهـا. هاتـان المبـادأة والشـجاعة اللتـان لم تنفصـلا للحظـة عـن الدفـاع عـن حريـة الإنسـان كإنسـان، والوطن الذي يضـم المرأة والرجـل معاً:

في زمن القتل الجماعي الذي نعيشه
لا توجد المصادفة
في زمن السادية العمياء
والفاشية السوداء
واللصوص، والحكام.. والتجار..
والصيارفةْ
لا توجد المصادفةْ
في زمن صارت به شعوبنا
أرانباً مذعورة وخائفةْ
لا بيت للإنسان كي يسكنه
إلا بقلب العاصفةْ

فـماذا أيضـاً لـو كانـت هـذه المـرأة تحمـل هـمّ المسـؤولية عـن مشـكلاتنا وهمومنـا حتـى تلـك التـي لم نصنعهـا:

إن جسمي نخلة تشرب من بحر
العرب
وعلى صفحة نفسي ارتسمت
كل أخطاء وأحزان وآمال العربْ

(برقيات عاجلة إلى وطني)

تفـوق وإنجـاز، شـجاعة ومبـادأة، انغـراس في مشـكلات الوطـن وهمومـه، وحلـم وسـعي لنهضتـه وتحـرره. كم مـن الرجال والنسـاء عـلى امتـداد عالمنا العـربي ينتمـون لتلـك القافلـة التي ما زالـت تقبض على الجمـر، والتي حولت

آلامها وآمالها أيضاً لإبداعٍ أصبح جزءاً من ثقافتنا الحية والمعاصرة.. شعراً نستند عليه في لحظات الشجن والحزن النبيل.. نتقوى به في مواجهة لحظات الاختيار، أو الضعف الإنساني، أو طرحاً سياسياً خلاقاً ينير لنا الطريق..

قلائل.. قلائل وسعاد الصباح بنت البادية من هؤلاء القلائل، تتصدر القافلة كنخلة في الطليعة تضرب بجذورها في عمق الصحراء العربية، وتمدّ ظلها الوارف باتساع سماواتها داعية للخير والتسامح والعدالة والحرية.

ما زالت سعاد الصباح المثقفة والمبدعة وداعية حقوق الإنسان، والاقتصادية والباحثة والناشرة، تشكّل بتاريخها وجهودها المستمرة نوعية متميزة من النساء العربيات تقدم نموذجاً للمرأة العربية في العصر الحديث.. قد يكون من الصعب التكرار، لكنها حفرت طريقاً منيراً في ظلام الثقافة التقليدية.. سوف يسلكه الكثيرون والكثيرات في رحلة تحرير الإنسان والوطن على امتداد عالمنا العربي.. سالكين طريق الرفض والغضب:

اغضبي..
أيتها الأرض التي نامت طويلاً
في فراش من ذهبْ
اغضبي..
أيتها الأرض التي تشرب بترولاً
وتبني عرشها فوق الحطبْ
اغضبي..
أيتها الأرض التي أسكرها المال
وأعماها البطرْ

(برقيات عاجلة إلى وطني)

كانت سعاد الصباح وما زالت طائراً في سرب يغرد للحرية ويسعى لها.. يعرف مكمن المرض:

كلما شاهدت عصفوراً بروما
أو بباريس.. يغنّي
دون أن يشعر بالخوف.. بكيت
كلما شاهدت طفلاً عربياً
يشرب البغضاء من ثدي الإذاعات
بكيت
كلما شاهدت جيشاً عربياً
يطلق النار على الشعب.. بكيت
كلما حدثني الحاكم عن عشق الجماهير
له
وعن الشورى.. وعن حرية الرأي..
بكيت

(فتافيت امرأة)

كان الدفاع عن حرية الرأي والإحساس بالأمان اللذين بكتهما سعاد الصباح شعراً، ممزوجاً بالممارسة الدؤوبة كداعية من دعاة حقوق الإنسان، هما المجال الذي أتاح لي الاقتراب والتعرف عليها من خلال نشاطها كمؤسسة للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، حيث أتيح لي منذ عام 1985 الاقتراب من سعاد الإنسانة، والداعية، والشاعرة.

هذا الاقتراب الذي أتاح لي التعرف على سبيكة نادرة من الرومانسية

المخلوطة بالثورة، والأرستقراطية الممتزجة بالبساطة، والقوة التي تخفي بداخلها نبلاً ورقّة وشجناً حميماً.

كانت متابعتي ومشاركتي معها في عشرات اللقاءات والمنتديات والمحافل العلمية والسياسية لا تستكمل بهجتها ومهمتها إلا بالاستماع لأنشودة من أناشيد سعاد الصباح التي لم تتخلَّ يوماً عن مواقفها ودفاعها عن التقدم والحرية:

معذرة.. معذرة
لن أتخلى قط عن أظافري
فسوف أبقى دائماً
أمشي أمام القافلةْ
وسوف أبقى دائماً
مقتولة.. أو قاتلةْ

(القصيدة أنثى والأنثى قصيدة)

ونحن أيضاً لن نتخلى عن السير أمام القافلة ما دام هناك أمثال سعاد الصباح بحسها العروبي.. وإيمانها بالحرية والإنسان. تلك القافلة التي قد تتعثر.. وقد تتأخر لكنها حتماً سوف تصل إلى نهاية الدرب حيث تسطع شمس الحرية والإنسان.

ابنة الخُلد

إبراهيم العريِّض[1]

طـــاولي كل طود أشـــمِّ ... مـــا عهدنـــاك إلا كأمِّ
يا ابنـــة الخُلـــد أيّ علاء ... لُحت منه لصـــادق حُلمي
حزت في الخَلق وحدك قلباً ... نـــيّراً.. بينما الحـــبّ يعمي
تســـتظلين رايـــة عـــزٍّ ... ولنجـــواك لألاء نجـــم
كيف عايشـــتِ أهل جوارٍ ... خانق بـــين خـــالٍ وعمِّ
كم تنادوا لبعـــض قضايا ... وتمـــادَوا بها دون حســـمِ
لقّنتْ ضربةُ الشمس درساً ... كلّ رام فـــما عـــاد يرمي
يا ابنة الخلد محـــض دعاءٍ ... قـــدَّر اللهُ. همّـــك همّـــي
مع تلك النوايـــا خلوصاً ... كالأعاصير وســـط الخضمّ
أن تقـــري بدنيـــاك عيناً ... في الـــورى بين مـــدح وذمِّ
لقـــرار كبرقـــة مُـــزنٍ ... مَنْ تُســـمّين، مَنْ لم تُسمّي
في احتجاز الأخصّ، سليهم: ... كيف ضلّوا طريق الأعمِّ؟
إنهـــم أمـــةٌ في انقســـام ... عـــوذ قاضٍ وحـــيرة أمِّي
لم يغب عنك ما غاب عنهم ... بدّل القـــرنُ كيفـــاً بكمِّ
هم كحادين خارت قُواهم ... فأناخـــوا وركـــبٍ أصمِّ
يا لذكـــراك والليـــل داجٍ ... أين عـــن مثلها بـــدرُ تمِّ

1- كاتب وشاعر بحريني. يعتبر أحد أعظم الشعراء في البحرين وأحد قادة الحركة الأدبية البحرينية في القرن العشرين. ولد في بومباي ودرس فيها حتى نال الشهادة الثانوية. انتقل إلى البحرين في 1927 واستقر فيها فتعلم العربية. تولّى إدارة إحدى المدارس حتى عام 1931، ثم أسس مدرسة أهلية. وعين سفيراً متجوّلاً في ديوان وزارة الخارجية البحرينية في 1975.

الخروج من مرحلة الصمت

د. ثريا إبراهيم العريّض[1]

الدكتورة سعاد الصباح..

كيف ألخص ما أراه في هذه المرأة وتاريخها في بضع فقرات؟ هل أقول هي المرأة البلورية التي تعكس صورة مجتمعها لا كما يريد أن تكون بل كما هو حقاً في أعماقه المتداخلة؟

هل أقدر أن أختزل امرأة مثل الدكتورة سعاد في مرئيات مهما تعمقت لن أجدها تفي بكل أبعادها؟ هي الشاهدة على عصرها كما قال عنها أبي.

ولندع شهادة الدكتوراه والتفاصيل الأكاديمية جانباً، فكم هناك من أناس يحملونها في أيديهم ولا تنعكس منها في حياتهم الحقيقية أية أضواء أو ظلال. بينما سعاد امرأة ولدت لتكون مصدر إشعاع، ولا يهم من كان أبواها.

لم ألتق سعاد شخصياً إلا مرة واحدة.. ولكنني تابعت خطواتها على الساحة الثقافية منذ أن وعيت وجودي الشبيه بوجودها في تفاصيله الجوهرية: امرأة عربية مسلمة خليجية مثقفة تفيض بالرغبة في فتح بوابات الأفق لها ولمجتمعها.

والآن بعد معايشة فكرية لها عن بعد جعلتها قريبة جداً مني روحياً، حين

1- أديبة سعودية من أصل بحريني، جمعت بين الشعر والثقافة والفكر ونالت الكثير من الجوائز. حاصلة على شهادة الدكتوراه، وهي عضو في مجلس الشورى السعودي من 11 يناير 2013، وحتى العام 2017.

أفكر في سعاد الصباح تتراءى لي امرأة أحترمها وأعزها جداً بكل وجوهها. امرأة تمثل لي تجسيد معاناة المرأة العربية المثقفة حيث تطالب بالمشاركة في البناء دون تحيز مسبق ضدها ولا تقييم مثبط لقدراتها وطموحاتها وصفاء بصيرتها. امرأة عربية تحتضن في عروقها بعض موروثات الخنساء وجليلة بنت مرّة وولّادة. امرأة مثقفة إلى حد قراءة ذاتها دون حاجة إلى تقبل معايير الآخرين. خليجية قادرة على تذوق ملح الخليج في دمائها، ولمعة الدانة في أحداقها. ومن بيت عز يحدوها ميراثها إلى إعلان الاعتزاز بذاتها وتفردها وجرأتها على طلب المعالي.

هي بنت أسرة حاكمة عريقة.. وهي لا تحتاج إلى تقديم غير ذلك لتحصل على توقير مجتمعها لها، في مجتمع يعرف منذ جاهليته أن قصائد المدح من فحول الشعراء هي دربهم المؤدي إلى النوال من الأمراء والكرماء. ولكن شيئاً ما تتفرد به القليلات النادرات بل القلة النادرة من النساء والرجال يدفعها إلى ترك الطريق السهل المضمون إلى الطريق الوعر المليء بالأشواك والعقبات.. طريق الريادة، بل ربما هو أكثر من شيء واحد يصب في مشاعرها ويرفد تبلور كيانها النهائي في جمال وشفافية وصلادة الماس: هي أنثى، لذلك هي مبتلاة مثل غيرها من الإناث بما فصّلته الأجيال من علاقات تشكم بها طموحاتهنّ خارج الدور المفروض والصوت الخفيض. بينما هي شاعرة قادرة على الساحة. وهي مثقفة، ولذلك فهي قادرة على أن تكون رائدة تتبع خطواتها الكثيرات المتطلعات إلى مستقبل أفضل يتاح لهن فيه أن يحققن ذواتهن. وهي شجاعة جريئة لا تتراجع عن موقف تحت وطأة رفض الآخرين أو توجسهم.

كل ذلك جعل من سعاد الصباح امرأة متميزة.. امرأة أصرّت على أن تترك

أثـراً ولم يكـن الأثـر الذي تبحث عنـه اعترافاً بتميزها على الإنـاث في التفاصيل المعتـادة، فهـي تـدرك أن ذلـك تجميـل للمظهر لا المخـبر لا يضمـن إلا اعترافاً يختـزل وجـود المـرأة يـأتي من بـاب المسـتفيد الأخـير، ومنطلـق "دع القوارير تكـسر بعضهـا". بـل رغبـت سـعاد الصبـاح أن تثبـت قدرتهـا، وبالتـالي قـدرة المـرأة عـلى العطـاء في مجـالات اقتـصرت في ممارسـاتنا منـذ الجاهليـة عـلى الرجـال: مجـالات الفكـر القيـادي التجديـدي، والكتابـة الإبداعيـة، والعطـاء بـكل الكـرم في صـورة مـا قدمتـه المؤسسـة التـي تحمـل اسـمها مـن خدمات جليلـة للسـاحة الثقافيـة العربيـة عـلى اتسـاعها، حيـث طبعـت المؤلفـات الفكريـة والإبداعيـة، وكرمـت رمـوز الإبـداع والفكـر ومـا زالـت تفعل.

ولننظـر إلى سـعاد الصبـاح في إطارهـا الزمني كما ينبغي، لكي نسـتطيع فهم مـدى تفردهـا في زمـن غريـب يـكاد يـأكل رمـوزه عقوقـاً. إن الفـترة الزمنيـة التـي تفصـل المـرأة العربية عـن حقها في الحضـور الكامل على سـاحة الوجود الإنسـاني خـارج مواصفاتهـا الجسـدية واختلافاتهـا عـن الرجـل، هـي فـترة قصـيرة لا تصـل القـرن في أي موقـع مـن البـلاد العربيـة. وكل مـا سـبق ذلـك كانـت المـرأة مغيّبـة الحضـور والصـوت خـارج جـدران المنـزل. ولم يكـن ذلك بتأثـير مؤامـرة مـن الخـارج ولا ترصـد لقتل التجـدد في العالم العربي والمسـلم، بـل كان نتيجـة تراكـم إرث مجتمعـي تشـابهت فيـه علينـا البقـر، فـما عـاد المجمـوع العـام يميـز بـين الأعـراف والتقاليـد المجتمعيـة بما في ذلك المسـتورد منهـا مـن الجـوار القريـب والبعيد، وبـين الثوابت الأصليـة التي لا مـراء فيها. ولا شـك أن كثـيرات مـن النسـاء العربيـات المثقفـات في الفـترة الزمنيـة التـي تلـت مرحلـة خـروج المرأة العربية مـن مرحلة الصمت المفـروض مجتمعياً أو ذاتيـاً وجـدن في اللجـوء إلى احتراف الكتابـة والتعبير جـسراً يخرجهن وبصورة

اندفاعية –وفي الوقت ذاته دفاعية- من وضعية المهمش إلى وضعية من يستقطب الأضواء، وإن جاء ذلك اللجوء في البدء متردداً ومتشبثاً بقضايا المجتمع وتطويره ونشر الثقافة بصورة عامة.. إذ كانت المرأة تمنح حق الصوت والتعبير ما دامت تلتزم بولائها الجماعي، وإن كان الدافع المستتر المولد للكتابة هو الدافع الفردي المتجذر في رفض المرأة الواعية لمعايير التهميش عبر التأنيث. وحين استمد بعضهن دعماً من التيارات الأنثوية في الغرب كان هذا "اللجوء" الفكري وحده دافعاً قوياً لبعضهن يحدوهن إلى المطالبة بحق التعبير عن معاناتهن عبر إعلان استحقاقهن للقب "مبدعة ملهمة"، وبغض النظر عن كون ما يطالبن به ضمنياً هو الأفضل في الميزان الأخير، أو كون تلك الموهبة المفترضة حقيقية أو غير حقيقية.

أما سعاد فكانت تكتب ما تحس به دون مواربة؛ تكتب متأججة من أعماقها كبلاغ حربي سواء جاء الناتج قصيدة عشق تعلن فيها حقها في التعبير الحر عن إحساساتها كإنسانة حباها الله نعمة الشعور وشفافية التعبير، أو جاء الناتج مقالة أكاديمية تعالج فيها قضايا الطفولة والبيئة وكل ما يؤلمها أن تراه في مجتمعها من التجاوزات والأخطاء.

مجتمعنا لم يعتد أن تتكلم المرأة دون أن يكون في فمها شيء من الماء. وهو الذي ما سمح لرجاله بالكلام إلا تحت راية الفحولة وشاعرية الدفاع عن القبيلة.

ثم تأتي امرأة مثل سعاد الصباح فتسحب ببراءة طفلة كل الأبسطة الممتدة تحت أقدام المنظرين وكل الأستار الكثيفة المسدلة على البصائر، وتعلن أنها تجرؤ على أن تحدّق في الحقائق وأن تعلنها كما تراها ليتمثلها من لا يستطيع أن يراها بمعطياته الذاتية؟

أستطيع أن أقول الكثير عما تمثله سعاد الصباح في تاريخ العرب الثقافي، ولكنني أكتفي بأن التاريخ والزمن هو الحكم الفصل والأخير في جلاء معدنها الحقيقي..

ولما كانت الأعمال بالنيات لم تتضح بعد لسعاد إلا نيات صافية وجهت كل قدراتها لخدمة الآخرين. أما مدى استحقاقهم لكل هذا الحب منها فهو موضوع آخر.

ولها مني كل تقدير وتحية ودعاء بالمزيد من التألق..

جوهرة خليجية تستحق الاحترام.

شاعرة النخيل

سمير عطا الله[1]

التقيت الدكتورة سعاد الصباح للمرة الأولى في أواخر الستينيات، أو العام 1970، عندما قال لي زميل لبناني إن الشيخ عبدالله المبارك مقيم في فندق هيلتون في باريس، وإنه صديق قديم، فهل ترغب في التعرف إليه؟ ترددت في الذهاب، فلا الرجل يعرفني، ولا أنا أعرفه، ولن تكون رفقتي للزميل سوى سلوى له، ولزوم ما يلزم بالنسبة لي.

كانت في ذهني صورة أخرى لعبدالله المبارك. فقد رسمه البعض على أن رجل ضاجّ، سريع الغضب، كثير الاهتمام بالمظاهر الطنانة، وقليل الاهتمام بالشأن السياسي والقضايا العربية. وكانت تلك الصور أحد أسباب ترددي في الذهاب، فإن أكثر ما أتجنب في الحياة أن أجد نفسي في حضور رجل غضوب لا أستطيع أن أرد عليه، بسبب فارق المكانة أو العمر أو مراعاة للأصول واللياقة.

إذن، استقبلنا الشيخ عبدالله في الردهة، وليس في جناحه، لأننا جئنا على غير موعد. فقد قال زميلي وصديقي إن الأفضل هكذا. فإذا وجدناه

1- كاتب لبناني، عمل في كل من صحيفة النهار ومجلتي الأسبوع العربي والصياد اللبنانية وصحيفة الأنباء الكويتية. عرف بأنه يمزج السياسة بالأدب والثقافة بالحدث. يكتب زاوية يومية في "الشرق الأوسط" منذ 1987، ومقالاً في صفحة الرأي كل خميس. ومقالاً كل أربعاء في جريدة النهار اللبنانية، وله أكثر من عشرة مؤلفات في التاريخ والرواية والسفر. عمل مراسلاً لجريدة النهار في أوروبا والأمم المتحدة، وعمل في الكويت مديراً لتحرير الأنباء، وترأس تحرير "الصياد" في لندن و"الأسبوع العربي" في بيروت.

قمنا بالسلام، وإذا لم يكن هناك فباريس واسعة وإقامتنا قصيرة. وكانت الردهة غاصة بالناس، ولسبب ما، كانت أيضاً مليئة برجال الشرطة في ثياب "مدنية" واضحة. وكانت هناك عائلة الشيخ عبدالله. وقلت في نفسي إنها زيارة لن تطول، فقد أعدنا الرجل عن الباب والمكان ضجيج، ثم أليس هو الشيخ سريع الغضب.

تحولت الزيارة في ردهة الهيلتون إلى جلسة طويلة، وكانت كلها حول الهموم السياسية في العالم العربي. وأخذ عبدالله المبارك يروي لنا، بلا انقطاع، حواراته مع جمال عبدالناصر ومع نائبه أنور السادات، وآراءه في الحال التي نحن فيها. وكنت أنتظر، وهو يروي، اللحظة التي ينفجر فيها غاضباً ويفسد الجلسة، ويحملني على أن أقسم بأنني لن أزوره بعد اليوم. لكن الرجل كان باشّاً هادئاً طوال الوقت، وكان بوجه خاص بعيداً عن "المظاهر الطنانة".

ولاحظت في ذلك اللقاء أمرين لن أنساهما بعد ذلك: الأول، أنه عندما تحدث عن صديق لبناني راحل دمعت عيناه ولم تتوقفا. تحدث عن عفيف الطيبي كمن فقد أخاً حقيقياً في محبة وفي احترام، ثم تطلع إليّ وقال: "لا تتوقع مني أن أذهب إلى لبنان بعد موت عفيف. صحيح لبنان بلدي وبلدنا جميعاً، لكن معرفتي بلبنان كلها ارتبطت بمعرفتي بعفيف".

الملحوظة الأخرى التي سترافق كل اللقاءات -على قلتها وتباعدها- كانت أن هذا الرجل المحافظ، القادم من الصحراء، المتحدر من إحدى العائلات العريقة في الحكم بالخليج، لم يكن يتحدث في أمر إلا ويقول: "اسألوا أم مبارك". لم تكن أم مبارك مجرد شريكة عادية.

قمت بزيارة عبد الله المبارك غير مرة في غير مكان: في منزله الريفي في لندن، وفي شقته في "بارك دو بودي" في جنيف، وفي "القصر الأبيض" في الكويت.. وفي كل هذه الزيارات كان المشهد واحداً تقريباً: عبد الله المبارك يتحدث بمشاعر حقيقية متدفقة، عن القضية المطروحة؛ دائماً الموضوع الفلسطيني، ومرة عن العراق، أو حرب لبنان، أو موضوع مصر. وفي كل اللقاءات كانت حاضرة بصمتها وطاعتها وتأهّبها للرد على أي سؤال من "أبو مبارك": الدكتورة سعاد الصباح.

في العام 1981 ذهبت للعمل في الكويت، ولا أدري إن كنت قد زرت "القصر الأبيض" خلال العامين اللذين قضيتهما هناك. غير أن صوت سعاد الصباح كان جزءاً من الإقامة. بل كان -دون أية مبالغة- جزءاً من العمل نفسه؛ فقد كانت "لأم مبارك" صفتان بالنسبة إليّ باعتباري مديراً لتحرير "الأنباء": الأولى موقعها كشاعرة، والثانية صفتها كدكتورة. وكنت أعتقد -ليس مثل الكثيرين وإنما مثل الجميع- أن شهادة الدكتورة في الاقتصاد ليست سوى ترف أكاديمي لسيدة تملك ما تملك الشيخة سعاد الصباح.. فما حاجة السيدة إلى اللقب؟ والآن وقد نالته واستحقته، فما حاجتها إلى العمل به؟ أليس مكانه -في منازل الشيوخ وقصورهم- في خزانة ما، أو على رف ما، أو مجرد براءة في إطار معلقة على الجدار؟

كان هذا انطباعي أو كان هذا ظني، أما الحقيقة فكانت غير ذلك. فلم يحدث أن عقد مؤتمر "الأوبك" أو وقع حدث نفطي ذو شأن، إلا وكان لسعاد الصباح بحث في الموضع وتحقيق وتحليل، وكانت تتصل بي في أوائل المساء، بكل تواضعها ووداعتها، وتقول لي: "أرجوك أن تحجز لي مكاناً لمقال عن هذا الحدث. إنني أعمل عليه الآن وسوف أرسله إليك في أقرب وقت

ممكـن". ولم تكـن تنتهـي مـن المقـال غالبـاً قبـل الحاديـة عـشرة ليـلاً. وكنت وأنـا أقـرؤه بخـط يدهـا الـذي لا يخطئ أقـول في نفسي: ما الـذي يحمل هذه السـيدة التـي ورثـت بـئراً من النفـط عـلى أن تتكبد كل هـذا العناء؟

ويـوم لم تكـن ترسـل مقـالاً أو بحثاً مطولاً عـن الأوبك، كانت ترسـل قصيدة جميلـة تنطـوي عـلى مشـاعر نبيلـة، عـن المـرأة، عـن الوطـن، عن الأمـة، عن النـاس، عن البسـطاء.

هـل هـي تريـد أن تقـول إن سـعاد الصبـاح هـي مـا اسـتحقت وليـس مـا ورثـت؟ هـي مـا عملـت ليـس مـا أعطيـت؟ لا أدري!

لكـن "الأنبـاء" لم تكن مـكان "العمل" الوحيد الذي سـألتقي فيه "الدكتورة سـعاد"، وهـو لقبهـا الأفضل بالنسـبة إليّ. بعـد الانتقال مـن الكويت إلى لندن مـن جديـد توليـت هذه المرة رئاسـة تحرير "عـالم النفط"، وهـي نشرة عربية تصـدر عـن أكـبر دار نـشر للطاقـة في العـالم، ويملكهـا صديقـي ورفيـق عمري الأسـتاذ رجـا الصيـداوي. وتقيـم صحيفـة "أويـل ديـلي" النفطيـة اليوميـة بالاشـتراك مـع "الهيرالـد تريبيـون" مؤتمـراً سـنوياً في لنـدن منتصـف نوفمـبر مـن كل عـام. وكنـت أحـضر هـذا المؤتمـر الـذي يسـتمر يومـين لمجـرد إثبـات الوجـود، أدخـل إلى قاعـة المحـاضرات ثـم أخـرج وقـد شـعرت بالملـل. وكلـما دخلـت أراهـا جالسـة ومعهـا أوراقهـا وأقلامهـا ومدوناتهـا مثـل أي محـررة مبتدئـة. تكتـب وتـدوّن وتسـأل، ثـم تجمـع النصـوص التـي تعنيهـا. وكنـت أشـعر بالخجـل مـن نفـسي، أنـا الصحـافي المحـترف الـذي يعيـش مـن مهنتـه، أهـرب مـن قاعـة المحـاضرات بأيـة ذريعـة، وزوجـة عبداللـه المبارك مسـمّرة في القاعـة، تصـل مـع الأوائـل وتخـرج مع الأواخـر، لا تكلّ ولا تتعـب ولا ترى غضاضـة في أن تحمـل أوراقهـا مثـل عاملـة بسـيطة في المؤتمـر.

وكنت أشعر أيضاً بالاعتزاز وبغبطة خفية لأن هذه السيدة الجادة التي يظنها المؤتمرون محررة في وكالة ما، تستطيع لو شاءت شراء الفندق الذي نحن فيه. ولأنها من الشرق، ولأنها سعاد الصباح الوادعة النبيلة الحضور، فهي الوجه الحقيقي الأنيس للمرأة الشرقية.

شيء ثالث، أو ملحوظة ثالثة، في الكتابة عن سعاد الصباح، السيدة التي أقدّر وأحترم بكل مشاعري، على الرغم من قلة اللقاءات وتباعدها، وهذه الملحوظة لا علاقة لها بالسيدة التي لم تكتف بكتابة الشعر والتعليق على حال النفط، بل بذلت الكثير الكثير من الجهد والوقت والمال لعالم النشر ولتكريم كبار أدبائنا وكتّابنا، المنسيين الذين لا ينسون. وقد كنت في الكويت عندما قدمت سعاد الصباح براءة التقدير الأولى للأستاذ عبد العزيز حسين، وكم كنت أقدّر هذا الرجل وأجلّه، وكم كنت أرى فيه رائداً من رواد التنوير وعنصراً فعالاً في إرساء قواعد النهضة العلمية والفكرية في الخليج.

غير أن ملحوظتي ليست حول سعاد الصباح الناشرة وحسب، فقد وصلني ذات يوم كتاب فائق الطباعة والتوثيق والترتيب والتأريخ، بعنوان "عبد الله المبارك، صقر الخليج". وكان هذا آخر هدية تقدمها أم مبارك إلى "أبو مبارك"، وهو كتاب يضعه في موقعه الحقيقي وفي المكانة التي يستحقها. والذين مثلي كانوا يعتقدون أنه رجل ضاجّ يحب المظاهر الطنانة، جعلتهم أم مبارك يشعرون بالخجل.

الصديقة سعاد

د. وجَدان عَلي[1]

سعاد الصباح.. زنبقة برّية اقتُلِعت من سفح هضبة رملية على مشارف الصحراء، لتزرعها في إناء من الفخار المزجج، على شرفة، فوق عمارة من الإسمنت، تدلّلها وتسقيها أياد بيضاء، ولكن دون حريتها الصحراوية.

سعاد الصباح الزوجة الأم والصديقة والشاعرة والاقتصادية والمرأة الشرقية المثقفة.. عندما فارقها ابنها إلى الأبد في طائرة ما بين الأرض والسماء بكَته وبكت حالها لأنها لم تستطع إنقاذه وتسلل من أصابعها كالماء ليلقى وجه بارئه. وعندما فقدت زوجها في الغربة كانت فاجعتها مزدوجة، فنزلت إلى الشارع ترثي وطناً سلبه وطن، وترثي رفيق عمر تركها وأولادها، في زمن مظلم رديء، وغربة موحشة.

من هي سعاد الصباح؟ أهي الشيخة الأرستقراطية سليلة العائلة الحاكمة أو هي حاملة الدكتوراه في الاقتصاد وأستاذة الجامعة؟ أو هي الشاعرة المرهفة ذات الخيال الواسع والكلمة الحلوة؟ أو هي الزوجة المحبّة والأم الثكلى؟ أو الصديقة المغدورة؟ أو المواطنة بلا وطن؟ أو راعية

1- فنانة أردنية ومعلّمة ودبلوماسية، والزوجة السابقة للأمير الأردني علي بن نايف، تُعرف الأميرة وجدان بجهودها في إحياء تقاليد الفن الإسلامي ومشهورة بلوحاتها المجردة وعملها كمؤرخة فنية. تلقت تعليمها الجامعي الأول في التاريخ من جامعة بيروت «الجامعة اللبنانية الأمريكية الآن» وذلك في عام 1961، ثم درست الفن بشكل خاص إلى أن حصلت على درجة الدكتوراه في الفن الإسلامي وعلم الآثار من جامعة لندن عام 1993.

الثقافـة العربيـة؟

سـعاد الصبـاح هـي كل هـؤلاء وأكـثر، ولكـن الأهم أنهـا بكل بسـاطة امرأة تبذل كل ما في وسـعها كي ترفد مسـيرة الثقافة العربية وتعينها على الاسـتمرار والتقـدم والتوجه نحو مسـتقبل أفضل.

وبرغـم كل مظاهـر المدنيـة لا تـزال روح الزنبقـة البريـة مختبئـة في باطـن هـذه السـيدة، تحـاول أن تكـسر قيـود الزيـف والكـذب لتعـود إلى نقـاء الصحـراء وصـدق العلاقـات الإنسـانية.

سعاد الصَباح.. والبساطة المستحيلة

جَمال الغيطاني[1]

سعاد محمد الصباح..

الشاعرة، الإنسانة..

متى رأيتها أول مرة؟ متى بالتحديد؟

لا يمكنني القطع أو الحسم، لكنني بالتأكيد رأيتها لأول مرة في أمسية شعرية، تلقي أشعارها وأصغي إليها، تقف فوق منصة معرض القاهرة الدولي ذات أمسية من يناير الذي يبدأ فيه معرض القاهرة الدولي للكتاب، أي سنة؟ أي يوم بالتحديد؟

أصبح ذلك كله مدغماً، مندمجاً، جزءاً من ذاكرتي؛ ها هي ذي تقف أمام جمهور المستمعين، صوتها من الأصوات النادرة التي يمكنني استعادتها. ما يبيد من الذاكرة الأصوات، صعب جداً استرجاع النبرات. لكنني أتمثلها بوقفتها أمام مكبر الصوت، مرتدية ثياباً بسيطة. تنشد شعرها بإلقاء متميز، فريد..

من القاهرة، إلى بغداد، ظلال مهرجانات المربد التي أقيمت زمن الحرب العراقية الإيرانية والتي توقفت عام ثمانية وثمانين. إلى تلك الأعوام تنثني ذاكرتي لاستعادة وقفتها، طريقة إلقائها، تأملي حضورها من مقاعد

1- روائي وصحفي مصري ورئيس تحرير صحيفة أخبار الأدب المصرية. وصف بأنه «صاحب مشروع روائي فريد استلهم فيه التراث المصري ليخلق عالماً روائياً عجيباً يعد اليوم من أكثر التجارب الروائية نضجاً»، ساهم في إحياء الكثير من النصوص العربية المنسية وإعادة اكتشاف الأدب العربي القديم بنظرة معاصرة جادة.

المستمعين، إن في القاهرة أو بغداد، العاصمتين العربيتين اللتين أتيح لي أن أصغي فيهما إلى أشعارها:

أكتب إليك هذه الرسالة
ولا أنتظرُ منك جواباً عليها
جوابُك لا يهمُّ كثيراً
المهم هو ما أكتبه أنا..
إن الكتابة عندي
هي حوارٌ أقيمه مع نفسي
قبْل أن أقيمه معك
فأنا أستطيع أن أستحضركَ
دون أن تكون حاضراً
دون أن تكون إلى جانبي..

تلك السيدة الجميلة، ذات الملامح العربية الصميمة، الثرية، تقف لتلقي أشعارها المعبّرة عن أدق خلجات المرأة، عن ثورة مكنونة، عارمة، تبدو كأنها مهرة جميلة مؤصلة، تستعصي وتنفر بعيداً، منفردة. صوتها الصادق كان يدفع عنها تحفظات عديدة، تلك التساؤلات التي يثيرها عند القوم الثراء، فما الحال إذا كان هذا الثراء كبيراً. غير أن هذه السيدة الكويتية لم تكن ذات صوت عميق صافٍ وأداء صادق فقط، إنما كانت تقدم نموذجاً جديداً على تعامل الثراء مع الواقع الثقافي، لم نعرف له مثيلاً منذ أن تبرّعت الأميرة فاطمة سليلة العائلة المصرية المالكة، في بداية القرن الماضي لتأسيس الجامعة المصرية التي أقيمت منذ البداية بأموال الأثرياء من أهل مصر، وأموال الأميرة فاطمة بالذات. في هذه المرة تجيء هذه العقيلة من الصحراء، من الخليج، من الكويت، لتعبّر أوّلاً عن ثورة المرأة المقموعة بشعرها ومواقفها:

قد كان بوُسعي
أن أبتلع الدمْع
وأن أبتلعَ القمعَ
وأن أتأقلم مثل جميعِ المسجونات
قد كان بوُسعي
أن أتجنَّب أسئلة التاريخ
وأهربَ من تعذيبِ الذاتْ
قد كان بوسعي
أن أتجنّب آهة كل المحزونين
وصرخة كل المسحوقين
وثورة آلاف الأموات..
لكنّي خُنتُ قوانين الأنثى
واخترتُ مواجهةَ الكلماتْ..

ليس أصدق من هذه الأبيات التي تعبّر عن موقفها البسيط، العميق، هذه البساطة في مظهرها وشخصها التي تجعل من يراها أو يتحدث إليها أو يواجهها لا يصدق، وأتصور أن هذه إحدى النقاط التي شكلت حاجزاً بينها وبين من لا يعرفها جيداً، وأورثتها تلك الطلّة الحزينة، الأسيانة في عينيها.

البساطة إلى حد لا يصدق.

كأن الناظر إليها يقول لنفسه: كيف تبدو بهذه البساطة وهي القوية جداً. الجميلة التي لا ينقصها شيء مما يتصوّر الناس!

بساطة عرفتُها على أكثر من مستوى، عندما كنت أصغي إليها من مقاعد

الجمهور وعندما جلست إليها عن قرب، بدءاً من عام اثنين وتسعين من القرن الماضي عندما أسست «دار سعاد الصباح» للنشر في القاهرة، وشاركت في نشاطها مسؤولاً عن نشر التراث القديم. وللأسف حالت عثرات دون اكتمال هذه المؤسسة الثقافية الفريدة، ولا أريد الخوض في هذه النقطة لما تثيره من آلام عندي قبلها، ولكنني أتصور أن بساطتها أملت عليها سلوكاً محوره الثقة بالآخرين، وأحياناً تمنح الثقة نتيجة حسن النية لمن لا يستحق!

عندما كنت أراها في الأمسيات الشعرية خلال الثمانينيات، كنت أصافحها بعد انتهائها من إلقاء الشعر، فتسألني عن أحوال زوجتي بحميمية، وكانت زوجتي قد أجرت معها حواراً في بداية الثمانينيات، نشر في مجلة صباح الخير.

عندما أسست سعاد الصباح دار النشر في القاهرة، كانت الدار امتداداً لاهتمام أصيل بالثقافة، اتخذ أشكالاً عديدة، منها تخصيص جوائزها الشهيرة لتشجيع شباب المبدعين والباحثين، وكان تقليداً جميلاً كل عام أن يتم توزيعها في حفل يقام بمعرض القاهرة الدولي للكتاب. وقبل تأسيس هذه الجوائز التي تحمل اسمها واسم زوجها الراحل المغفور له الشيخ عبدالله المبارك الصباح، كانت قد أعادت نشر مجلة "الرسالة" الشهيرة التي أصدرها أحمد حسن الزيات عام ثلاثة وثلاثين من القرن الماضي. ولعبت دوراً مهماً في الحياة الثقافية العربية عامة وليس في مصر فقط. ثم توقفت عام ثلاثة وخمسين. ويعد إصدارها في طبعة ثانية مكتملة "تتكون من أربعة وأربعين مجلداً" بمثابة إحياء لهذه المجلة المهمة. ولولا هذه الطبعة الكاملة لما اطلعت عليها إلا في المكتبات العامة ولما استطعت

الاحتفاظ في مكتبتي الخاصة بنسخة كاملة منها. ولولا قيام الشاعرة سعاد الصباح بتمويل إعادة إصدارها لأصبحت المجلة من الآثار التي تصعب رؤيتها. ويعد هذا العمل، رائداً بكل المقاييس، ولم تقم المؤسسات الثقافية الرسمية بمثل هذه الخطوة إلا في السنوات التي تلت ذلك. لقد كان إصدار "الرسالة" للمرة الثانية خطوة مهمّة في الحفاظ على الذاكرة الثقافية العربية.

لم يكن الثراء الوفير إلا وسيلة لتحقيق أهداف جليلة ربما جالت في ذهنها يوماً وكأنها أحلام، أن تنشر الثقافة وتشجع العلم والعلماء، وأن تدعم قضايا الحرية خاصة ما يتصل بحقوق الانسان. ولا أذيع سرّاً أنها دعمت نشاط المنظمة العربية لحقوق الإنسان مادياً ومعنوياً، واشترت مقرّاً فسيحاً لها في القاهرة، وكفلت لها بدعمها المستمر حرية تامة، ونزاهة يشهد لها الكافة. وتعد تقاريرها من أعمق وأصدق ما يصدر عن أحوال حقوق الإنسان في العالم العربي.

خلال اجتماعات مجلس أمناء "دار سعاد الصباح للنشر" أتيح لي أن أراها عن قرب، وأن أتأكد من تلك السمة التي شعرت بها من قبل وأنا أصغي إلى أدائها لأشعارها عن بعد.

إنها البساطة: حضورها البسيط الهادئ يفرض على الإنسان إحساساً بالاحترام، ويمدّه بشعور الألفة، ويبدو جمالها العربي الصميم مجرداً من أية مساحيق، لا أثر في وجهها للظلال أو للألوان التي تتبدّل في وجوه الأخريات طبقاً لساعات النهار. فقط الكحل الأسود الذي اشتهر به العرب. والذي رأيت في طفولتي نساء الصعيد المصري الذي ولدت فيه يضعنه بعناية وحذق في عيونهن. ربما كان من عوامل الألفة بالنسبة لي

أن ملامح الشاعرة سعاد الصباح تبدو مألوفة لي، وكأنها حفرت في ذاكرتي من قبل. ربما لأنها ذات وشائج وثيقة بملامح قريباتي المنحدرات من سلالة قبيلة "جهينة" العربية الصميمة التي أنتمي إليها، هكذا تبدو بساطتها مستحيلة لمن لا يعرفها، أستدعي الآن لحظة من صيف عام مضى من تسعينيات القرن الماضي، كنا نجلس في سفينة على النيل، وكانت برفقة صديقة لها، زميلة دراسة في كلية العلوم السياسية والاقتصادية بجامعة القاهرة، التي تخرّجت فيها عام ثلاثة وسبعين، وكنت خلال لحظات الصمت أتأمل بساطة ملبسها، وخلو أصابعها ومعصمها من المجوهرات التي تبهر النظر، وأتأكد مرة أخرى من تلك السمة الأساسية لها: البساطة، البساطة المستحيلة.

قرأت شعرها بعد أن أصغيت إليه، وقرأت أشواقها وأشجانها في ما أنشدته، إنه شعر بسيط، عميق، مثل شخصها تماماً. هذه الطلة الأسيانة التي تبدو من خلال عينيها بحثت عن جذورها أو أسبابها في شعرها، وفي كتاباتها القليلة عن حياتها، ومن خلال الحوارات التي شاركت فيها.

على المستوى الشخصي يبدو رحيل ابنها البكر بين ذراعيها مأساوياً، ضارياً، ومصدر ألم دفين عميق.

تقول في كتابها عن زوجها الراحل: "وربما يعجب القارئ من أن هذا الرجل الذي اتسم سلوكه العام بالانضباط والحزم، كان يتحوّل في لحظة الحنان الأبوي، إلى قلب مفعم بالشفقة والخوف على من حوله، وظلّ عمره كله ينزف جرح وفاة ولده الأول مبارك الذي اختاره الله إلى جواره في 22 يونيو عام 1973".

ثم تقول: "ما زلت أتذكر مناسبة كان لها أوقع الأثر على أبي مبارك، ففي مطلع عام 1986، هبطت بنا الطائرة في مطار الكويت بعد مشاركتي في أمسية شعرية بمعرض الكتاب في القاهرة، دخل إليها ابننا محمد وهو يرتدي الكوفية والعقال والبشت، شهق عبدالله ودمعت عيناه، وقال: (هذه هي المرة التي أرى فيها محمداً بثياب الرجال.. آه) وسكت. ولا أعرف ما دار بعقله في تلك اللحظات السريعة الخاطفة، ولعلّ سكين الذكريات أدمى قلبه من جديد، وهو الذي زيّن القلب بصورة نجله البكر مبارك الذي كانت وفاته صدمة لنا جميعاً. اختزن أبو مبارك أحزانه في داخله وتعامل معها بالصمت والصبر، أما أنا فقد حملت فجيعتي إلى كل أم من خلال مرثية اللوعة التي سجلتها لهذا الحدث في ديواني إليك يا ولدي، ما زلت أذكر تلك اللحظات التي مرت كدهور وأنا أحتضن ابني، ونحن بين السماء والأرض، في الطائرة، أحضنه إلى الصدر حين ناداه ربه إليه حيّاً ومسافراً إلى عالم الغائبين، فكانت اللحظة أصعب من أن أسطرها بكلمات النثر، وأكبر من أن أعبّر عنها بحروف الشعر".

ها هي تصف الموقف المؤلم في ديوانها إليك يا ولدي الذي أعدّه من أعمق وأشجى أشعار المراثي في شعرنا العربي الحديث، شعر متدفق من صميم الأم الثكلى، في قصيدة (طائرة الموت) تصف الحدث المؤلم:

صاح بي طفلي المفدَّى وهو مخنوق الأنينِ
وَيْكِ أُمي أدركيني.. وَيْكِ أمي أنقذيني
أسعفيني بهواء من صمام الأوكسجين
وخذيني في ذراعيك لأرتاح.. خذيني
قرّبيني.. قبّليني.. عانقيني.. أدْفئيني

إنني أشعر بالرعشة تسري في وتيني

وتمضي القصيدة - الفجيعة لتسرد وقائع ما جرى، وتصف مشاعر الأم الثكلى. ودون مبالغة أعتبر هذه القصيدة من نفائس الشعر العربي الحديث، ومن أصدق قصائد الرثاء، بالتأكيد.. أورثها هذا الحدث المؤلم حزناً عميقاً، مستمراً، يكسبها تلك الملامح الأسيانة.

وهذه النظرة الشاردة المتجهة إلى لا مكان، إلى حيث تمضي الأرواح الهائمة.

غير أن ثمة مصدراً آخر للحزن استجد نتيجة حدث مؤلم لكل من اعتنق الفكرة القومية، وذلك عندما وقعت كارثة غزو الكويت من جانب جاره القوي العراق. لقد رأيت الشاعرة سعاد الصباح تنشد أشعارها لمؤازرة العراق أثناء الحرب العراقية - الإيرانية، كان ذلك في مهرجان المربد الذي كان يعقد أثناء الحرب سنة بعد أخرى. لم تتخلف سعاد الصباح ولم يغب صوتها القوي، الهادر، المؤازر للقطر الشقيق. ولكن تحل المأساة الكارثة، بعد توقف إطلاق النار مع إيران بعامين، إذ تستيقظ سعاد الصباح، ذات صباح حار من أغسطس، لتجد أن الجيش الذي كانت تؤازره بقصائدها ومواقفها، قد دخل إلى وطنها غازياً. غير أن سعاد الصباح -لا وهي في ذروة المحنة، ولا بعد انتهاء الكارثة التي حلّت بوطنها، وبدء تداعياتها على الوطن العربي كله- لم تفقد إيمانها بعروبتها، هذا الإيمان الذي تعبّر عنه في تلك القصيدة التي استهلّت بها ديوانها برقيات عاجلة إلى وطني:

1

إنّني بنتُ الكويتْ
بنتُ هذا الشاطئ النائمِ فوق الرملِ
كالظبي الجميلْ
في عيوني تتلاقى
أنْجُمُ الليل، وأشجارُ النخيلْ
منْ هنا.. أبحرَ أجْدادي جميعاً
ثم عادوا.. يحملون المستحيل

2

إنّني بنتُ الكويتْ
هل من الممكنِ أن يصبح قلبي
يابساً.. مثل حصانٍ من خَشَبْ
بارداً..
مثل حصانٍ من خَشَبْ
هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب؟
وعلى صفحة نفسي ارتسمت
كل أخطاء وأحزانِ وآمالِ العربْ

3

سوف أبقى دائماً
أنتظر المهديَّ يأتينا
وفي عينيه عصفورٌ يغنِّي
وقَمَرْ
وتباشيرُ مطرْ

سوف أبقى دائماً
أبحثُ عن صفصافة.. عن نجمة
عن جنّةٍ خلف السرابْ
سوف أبقى دائماً
أنتظرُ الوردَ الذي
يطلع من تحت الخرابْ!

سعاد الصباح.. لا تتكرر

محمد فائق[1]

هناك شخصيات تدخل حياتنا فتملؤها بهجة وحبّاً وتقديراً، ولا شك أن سعاد الصباح من هذا الطراز الفريد الذي يترك هذا الأثر في كل مجال من مجالات العمل الذي يطرقه.

وقد طرقت سعاد الصباح مجالات عديدة تتعلق بحياتنا، وذلك في أشعارها وكتاباتها وإسهاماتها الكثيرة في ندوات ومؤتمرات عقدت حول هموم أمتنا.

ولن أتحدث عن سعاد الصباح الشاعرة، ورقّة شعرها الذي ملأ حياتنا بالحب والوطنية والانتماء إلى أمة عربية واحدة. ولن أتحدث عن كتاباتها وأبحاثها العديدة التي أسهمت بها في رسالة التقدم والتنوير التي عرفت بها.

ولكنني سوف أتناول سعاد الصباح في مجال هو أكثر ما ربطني بها، وأقصد به مجال حقوق الإنسان.

فقد كنا سوياً في مجموعة صغيرة من الإخوة الأفاضل توصلت بقناعتها إلى أن احترام حقوق الإنسان هو المدخل الصحيح لإصلاح أمتنا وإطلاق

1- وزير إرشاد قومي (وزير إعلام) مصري سابق، من مواليد عام 1929. درس في كلية التجارة، ثم حصل على عدة دورات في بريطانيا عن الدفاع الجوي عام 1951. عضو مؤسس للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، وترأسها لأكثر من عشرين عاماً.

طاقاتها المبدعة وتحريرها من الخوف. وكان أن انعقد عزم هذه المجموعة ومن بينها سعاد الصباح على إنشاء المنظمة العربية لحقوق الإنسان. وتحت مظلّة مركز دراسات الوحدة العربية جرت محاولات عديدة لعقد مؤتمر تأسيسي في الوطن العربي، ولكن لم تقبل أي دولة عربية مجرد أن يكون هذا الاجتماع على أرضها. وذهبنا إلى ليماسول في قبرص وانتخب أوّل مجلس أمناء للمنظمة العربية، وكان من بين أعضائها سعاد الصباح التي سرعان ما أصبحت، بحماسها للفكرة وشخصيتها الوهاجة، الشعلة المضيئة في هذه المجموعة لإخراج هذه الفكرة إلى النور.

ولم يكن الأمر سهلاً على سعاد الصباح، فهي سيدة من الخليج استطاعت أن تحرر نفسها فكرياً وثقافياً بما حصلت عليه من علم ونيلها درجة الدكتوراه في الاقتصاد، ولكن كان عليها أن تكسر قيوداً وحواجز كثيرة فرضت على المرأة في وطننا العربي، خاصة إذا كانت هذه المرأة في مجتمع خليجي. كما كان عليها أن تكسر قيوداً أشد قسوة، تلك القيود التي فرضت عليها بحكم انتمائها للأسرة الحاكمة. وكم كلفها إخلاصها لأفكارها واتساقها مع نفسها وإيمانها بالدعوة لحقوق الإنسان من متاعب، خاصة أن هذه الدعوة بدأت منذ عام 1983 وقبل أن تبلغ أهمية حقوق الإنسان هذه الدرجة على مستوى العالم وتصبح لغة العصر، وقبل أن تتقبلها حكوماتنا العربية. وبرغم هذه المتاعب صمدت وتحمّلت كل الصعوبات التي واجهتها حتى إن مقالاتها وكتاباتها وأشعارها أصبحت محظورة في وقت من الأوقات، بل وصل الأمر إلى حد ملاحقة أي صحيفة في الوطن العربي تنشر لسعاد الصباح. ولم يزدها ذلك كله إلا إصراراً وتصميماً على المضي في دعوتها.

وتبـوأت سـعاد الصبـاح مكانـة عاليـة في حركـة حقـوق الإنسـان وأصبحـت في قيـادة المنظمـة العربيـة لحقوق الإنسـان (لجنتهـا التنفيذية) منذ نشـأتها، وتـمّ انتخابهـا بمـا يشـبه الإجـماع في كل جمعياتهـا العموميـة التـي حضرتهـا، تقديـراً وإجـلالاً لدورهـا الرائـد في حركـة حقـوق الإنسـان. والـذي يـزور مقرّ المنظمـة العربيـة لحقـوق الإنسـان في القاهـرة يجـد أن أهـم قاعاتهـا تحمـل لوحـة باسـم "سـعاد الصبـاح" تقديـراً لدورهـا النبيـل وعطائهـا المسـتمر في خدمـة المنظمـة وحركـة حقوق الإنسـان.

وقـد جـاء اختيـار سـعاد الصبـاح للعمـل في مجـال حقوق الإنسـان، متسـقاً مـع تكوينهـا الشـخصي واحترامهـا لذاتهـا واحترامهـا لآدميـة الإنسـان، ونبـل أخلاقهـا واسـتقامتها، وانعكـس ذلـك كلـه في قدرتهـا عـلى التعامل مـع الناس بلطـف واحـترام وتهذيـب. وهـي لا تعـرف الحقـد أو الكراهيـة ولا تضمـر لإنسـان عـداوة أو شرّاً. كل ذلـك جعلهـا نموذجـاً مقنعـاً وخير داعيـة في مجال حقـوق الإنسـان، وجعـل مسـاهماتها فعّالـة وتأثيرها عظيـماً، وأصبحت قدوة للمـرأة العربية.

وقـد وظّفـت سـعاد الصبـاح علمهـا ودراسـاتها لخدمـة قضايـا حقـوق الإنسـان، فهـي تقـول في مقدمـة أحـد كتبهـا عـن حقـوق الإنسـان: "رحلتـي مـع موضـوع حقـوق الإنسـان ارتبطـت بأكـثر مـن رافـد؛ فدراسـاتي العلميـة غرسـت في نفـسي أن هـدف الاقتصـاد في نهايـة الأمـر هـو رفاهيـة الإنسـان وحقّـه في حيـاة كريمـة. واهتمامـاتي الأدبيـة وصفت الإنسـان ككتلـة متوهجة مـن المشـاعر والأحاسـيس وككائـن يتطلّـع إلى تحقيـق ذاتـه في قلـب إدراكـه للحيـاة وللعلاقـة الإنسـانية".

وقـد قامـت سـعاد الصبـاح مـع مجموعـة مـن أعضـاء المنظمـة العربيـة

لحقوق الإنسان في الكويت على رأسها الأستاذ جاسم القطامي بتكوين جمعية كويتية لحقوق الإنسان كانت الأولى من نوعها في منطقة الخليج، ومازالت تقوم بدور مهم لدعم مسيرة حقوق الإنسان في المنطقة.

ومن الموضوعات التي اهتمت بها سعاد الصباح الربط بين حقوق الإنسان وتعاليم الأديان السماوية والأفكار السامية التي جاءت بها هذه الأديان والتي حثت كمبدأ عام على وجوب احترام حقوق الأفراد جميعاً وعلى قدم المساواة. ولذا خصصت العديد من بحوثها وصفحات كتبها للحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام الذي هو أصل الدعوة لهذه الحقوق، وهي في ذلك تثبت أن حقوق الإنسان نابعة من جذورنا وثقافتنا الإسلامية وتعاليم الدين، وليست مجرد أفكار مستوردة من الغرب. ويعكس هذا الاهتمام الرائد بالدين والثقافة الإسلامية جانباً مهماً في شخصيتها. فبرغم أسفارها وانفتاحها على الثقافة الغربية إلا أنها ترتبط بجذورها العربية وبقوميتها وبانتمائها للحضارة والثقافة الإسلامية ارتباطاً شديداً ينعكس في أشعارها وكتاباتها ليس فقط عن حقوق الإنسان ولكن في كل الموضوعات التي تطرقها.

ولم تحصر سعاد الصباح نشاطها في القضايا الفكرية والنظرية المتعلقة بحقوق الإنسان، ولكن اهتماماتها امتدت إلى التطبيق أيضاً بممارساتها العملية في المنظمة العربية لحقوق الإنسان وأيضاً في مؤلفاتها. فقد صدر لها كتاب باسم "حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق"، أعدّته لطلاّب المرحلة الثانوية. وهذا يعكس أيضاً مدى اهتمامها بالشباب وتضمين حقوق الإنسان في المناهج الدراسية. وكان لها جهد مشكور مع الجمعية الكويتية لإقرار ذلك في مناهج التعليم في دولة الكويت. وإذا كنت قد تحدثت

عـن بعـض مؤلفات سـعاد الصبـاح في مجـال حقوق الإنسـان، فإن إسـهاماتها الثقافيـة كانـت أبعـد مـن ذلك بكثير؛ فقد شـملت جوانب عديـدة ولم تكتف بمقالاتهـا وأشـعارها وكتبهـا، وإنمـا أنشـأت داراً للنشر هي "دار سـعاد الصباح للنشر" أصبحت مؤسسـة ثقافية راسـخة سـاهمت من خلالها في نشر الثقافة الرفيعـة في كل أنحـاء الوطـن العـربي، واهتمّت بالتراث والانفتـاح على العصر والعلـوم والفنـون الجديدة. وخصصـت الجوائز والمكافـآت للمبدعين للنهوض بحركـة التأليـف وتشـجيع الإبداع. وقد اتسـع الإشـعاع الثقافي لسـعاد الصباح مـن خـلال هذه الـدار ليشـمل الوطن العـربي كله.

ومـن أهـم وأجمـل ما قامـت به سـعاد الصباح مـن خلال دار نشرها لمسـة الوفـاء التـي كرّمـت بهـا أعـلام الثقافـة والفن المعاصريـن من أمثـال د. ثروت عكاشـة الـذي انتعشـت بـه الثقافـة في مـصر والوطن العـربي والشـاعر الكبير الـذي رحـل عنا نـزار قباني.

إنهـا لمسـة وفـاء تعكـس ملمحـاً مهـماً في حيـاة سـعاد الصبـاح وفي تكويـن شـخصيتها، وقيـماً رفيعـة تتحـلى بها. وقد تجسـدت هذه القيم بشـكل واضح في حيـاة سـعاد الصبـاح فكانـت وفيـة لوطنهـا وفيـة لأمتهـا وفيـة لجذورهـا وثقافتهـا وفيـة لأصدقائها وفيـة لأسرتها ثم في قمة الوفاء للإنسـانية وللبشرية جمعـاء. ولم يكـن غريبـاً عـلى سـعاد الصبـاح أن يكـون الإهداء الـذي صدّرت بـه كتابهـا "حقـوق الإنسـان في العالم المعـاصر" هو:

"إلى صديقي الإنسان..
في كل مكان.."

وقـد حققـت سـعاد الصبـاح نجاحـات عديـدة وكبـيرة، بـل إنهـا أصبحـت في عـداد نجـوم هـذا الوطـن في مجـال الثقافـة والشـعر وحقـوق الإنسـان،

واتسع جمهورها بشكل كبير في أنحاء الوطن العربي، ولكن ظلّت المرأة الخجولة شديدة الخجل، المتواضعة شديدة التواضع، ولكنه ذلك التواضع الذي يجعل صاحبته بصدق مشاعرها وطبيعتها البسيطة شامخة مرفوعة الهامة دائماً.

لقد كانت زمالة هذه السيدة دائماً مصدراً لاعتزازي وسعادتي، وأشهد أن المنظمة العربية لحقوق الإنسان ما كان من الممكن لها أن تحقق ما حققته على المستوى الدولي والعربي وتحتفظ باستقلالها الكامل في غياب جهد هذه السيدة الفاضلة وعطائها.

إلى صديقة الأيّام الخضراء.. والعمر الجميل

زينب عبدالسّلام القاضي[1]

يبدو أنني مهما حاولت أن أبحث عن كلمات ومعانٍ تعبّر عن الصداقة الجميلة التي جمعتني بصديقتي وأستاذتي ومثلي الأعلى "سعاد الصباح" لم أجد سوى كلماتها التي جعلتها عنواناً لشهادتي هذه، والتي قدمت بها إهداءها لي ديوانها الرائع: فتافيت امرأة. هذه الكلمات التي أعتزّ وأفخر أنها موجّهة لي من هذه الإنسانة الرائعة التي تعرف للكلمة قيمتها.

"سعاد الصباح" كما عرفتها منذ عام 1969 هي الزميلة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم الصديقة النادرة حتى يومنا هذا التي تزيد السنوات من عمق صداقاتها، لتتحوّل الصداقة إلى أخوّة عميقة مسؤولة لا تشغلها أبداً حياتها المليئة بالمسؤوليات عن الوقوف بجوار صديق في أي مكان في العالم، فالصداقة عند "سعاد" لا يحدّها وطن.

أتيح لي خلال هذه السنوات الممتدّة أن أتعرف على جوانب كثيرة من شخصيتها، وهي بحق شخصية فريدة. أو باستخدام مفرداتها الشعرية، هي فعلاً "امرأة استثنائية". فبداية عندما تزاملنا بكلية الاقتصاد كنا نعلم كطلبة وطالبات أن لنا زميلة متميزة اللقب، فهي شيخة كويتية، ولم نكن ندري كيف سنتعامل معها أو كيف ستتعامل معنا، إلا أنه وبعد أسابيع قليلة من بدء الدراسة واندماجنا في الحياة الجامعية الجديدة، لفت نظري

1- صديقة.

أنا ومجموعة من الزميلات اللاتي اقتربن منها، أن هذه السيدة إنسانة رقيقة جداً وترفض أي ألقاب وتطلب أن تخاطبها زميلاتها باسمها مجرداً "سعاد". ولم يكن صعباً علينا أن نتصرف معها ببساطة وتلقائية شديدة، فسعدنا بزمالتها وحرصها على المشاركة في مختلف الأنشطة الرياضية والاجتماعية، وكذا في احتفالات الزملاء المغتربين بأعيادهم القومية. ولا أنسى أبداً مشاركتها مع بداية العام الدراسي 71 / 72 عقب وفاة الزعيم خالد الذكر "جمال عبدالناصر" في تأبين الزعيم بقصيدة رائعة بعنوان (عندما رحل عبدالناصر). وكانت هذه القصيدة تأكيداً لحبّها لمصر ولعروبتها وإيمانها المطلق بوحدة الأمة العربية. بالنسبة لنا كشباب في بداية حياتنا الجامعية كان لهذا التجسيد لمعنى الوحدة العربية أثر إيجابي كبير في تنمية الشعور القومي لدينا. لقد كانت في هذا المجال بحق قدوة لنا، لا يتسع المقام للخوض في تفاصيلها.

أعود لسعاد الطالبة الجامعية التي كانت في اهتمامها وجدّيتها في الدراسة تشعرني بأنها في منافسة دائمة ليس للتفوّق فقط، بل للحصول على مركز متقدم على الدفعة. وقد علمت فيما بعد أنها اعتادت التفوق طوال حياتها، حتى إن أوّل لقاء لها مع زوجها المغفور له الشيخ عبدالله مبارك الصباح كان عندما سلّمها شهادة وجائزة لتفوّقها وحصولها على المركز الأوّل على كل مدارس الكويت في المرحلة الإعدادية.

قد يتعجّب البعض لو قلت إن سعاد الصباح شخصية "عصامية"؛ فهي لم تعتمد يوماً على عراقة نسبها وكونها من العائلة الحاكمة، ولا على أنها الشيخة زوجة الشيخ عبدالله مبارك الصباح "صقر الخليج"، الذي كتب اسمه بأحرف من نور في تاريخ بلاده والأمة العربية، أقول لم تعتمد سعاد

يوماً على هذا المجد "الجاهز"، بل جاهدت وبذلت من طاقتها ووقتها وتحمّلت كل الضغوط والالتزامات التي يفرضها عليها وضعها، وكان يمكن تحت وطئتها أن تنثني وتتراجع إشفاقاً على نفسها من الجهد غير العادي إلا أنها ثابرت ونجحت في كل إنجازاتها في مجالات الحياة التي شاركت فيها بعمق وجدية وصدق، في أن يوضع اسمها في أبرز مكان في تاريخ المرأة العربية الحديثة؛ فقد حصلت على أعلى الدرجات العلمية حبّاً في العلم وزهداً في اللقب. فهي يسعدها أن تكون الدكتورة سعاد بدلاً من الشيخة سعاد. وكم قالت لي: لو كان لا بد من أن أخاطب بلقب فليكن هذا اللقب مكتسباً من علمي وجهدي وليس لقباً موروثاً بميلادي.

هذه هي سعاد كما عرفتها منذ البداية: الثائرة -من دون افتعال- على كل المظاهر الكاذبة، الواعية بكنه الحياة وبقيمة الإنسان الحقيقية، ترفض الزيف ويأسرها الصدق. سعاد الزوجة الرائعة شخصية فذّة استطاعت بحكمتها المدهشة أن تحقّق التوازن بين أدوارها العديدة في الحياة زوجة وأمّاً وجدّة وطالبة وشاعرة وشخصية عامة معروفة لها دور بارز في الحياة الثقافية والفكرية، وفي الدفاع عن حقوق الإنسان، فضلاً عن نشاطها التطوعي في كافة الجمعيات الخيرية. سعاد الزوجة المحبوبة التي تعلم تماماً حقوق زوجها ولم تغتر يوماً بمكانتها لديه، فكان نظام حياتها مُجَدْوَلاً بحيث تكون موجودة بمجلس الشيخ وفي كل الأوقات التي ينبغي أن توجد فيها، حتى يظن المرء أنها تكون في أكثر من مكان في آن واحد. ولا أنسى أيام الدراسة في الجامعة وكانت قد وضعت في عامي 71 و72 ولديها "محمد" و"أمنية". كانت "سعاد" تتغيّب بين المحاضرات لتذهب لصغارها في مواعيد الرضاعة. إنها الأم المسؤولة كما هي الزوجة المسؤولة،

فالمسؤولية سمة من سمات سعاد، "سعاد" التي عرفتها، تحث أبناءها على حب الفقراء والتعاطف معهم، والتي عبّرت عن موقفها من حياة الترف التي أحاطت بها في كلمات صادقة في قصيدتها الصرخة (أنثى 2000)، حيث تقول:

قد كان بوسعي
-مثل جميع نساء الأرض-
مغازلة المرآةْ
قد كان بوسعي،
أن أتشكل بالفيروز، وبالياقوت،
وأنْ أتثنى كالملكاتْ
قد كان بوسعي ألا أفعل شيئاً
ألا أقرأ شيئاً
ألا أكتب شيئاً
أن أتفرّغ للأضواء.. وللأزياء.. وللرحلاتْ
قد كان بوسعي،
أن أبتلع الدمع
وأن أبتلع القمع
وأن أتأقلم مثل جميع المسجونات
قد كان بوسعي
أن أتجنب أسئلة التاريخ
وأهرب من تعذيب الذات
قد كان بوسعي
أن أتجنب آهة كل المحزونين

وصرخة كل المسحوقين
وثورة آلاف الأموات..
لكني.. خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات..

هـذه هـي سـعاد الإنسـانة التـي أدركـت ندرتها، فسـعدت منذ ذلـك اليوم مـن عـام 1969 وحتـى اليوم بصداقتها النادرة، وشرعـت الآن في كتابة ذكرياتي عنهـا، وقـد كنـت دومـاً أقـول لنفـسي: سـوف أكتب عنـك ذات يوم يا سـعاد، وهأنـذا اليـوم أقـول: الحمد لله لقـد فعلت.

الصورة والظلال

محمّد خالد القطمة[1]

مـن العـام 1954 حتـى العـام 1961 تعـودت أن يسـألني د. محمد يوسـف نجـم، أسـتاذي وأسـتاذ أجيـال عـدة مضـت أو بقيـت، الكتابـة في موضـوع أدبي متصـل بدراسـتنا الجامعيـة. ولم أكـن أجـد في أي تكليـف عنـاء إذ إن اللـه مـنّ عـليّ بالقـدرة عـلى متابعـة الدراسـة لنيل شـهادة الإجـازة في الأدب "البكالوريـوس" ثم التحضير لشـهادة الماجسـتير، التي حالـت بيني وبينها أيام السـجن المقيتـة إثـر محاولـة الانقـلاب التـي قادهـا الحـزب السـوري القومي الاجتماعـي ليلـة 30 / 12 / 1961 وانتهـت بالإخفـاق، ومعـه كان موعـدي مـع السـجن بـدل الوقـوف أمـام لجنة الامتحـان لنيل الشـهادة الموعـودة من الجامعـة الأميركيـة في بـيروت.

هـذه المـرة تذكرت أسـتاذي من جديد حين دعاني كي أسـهم في هـذا الكتاب الجليـل، تذكـراً للسـيدة التـي أدين لها بما أنـا عاجز عن سـداده: أخوّة ومحبة واحترامـاً لا تليـق بأحد كـما يليق بها.

وإذا كان الوفـاء الشـيمة الأولى في حيـاة سـعاد الصبـاح وفي سـلوكها الدائم،

1- صحفـي وشـاعر وكاتـب سـوري. أنهـى دراسـته العاليـة بدرجـة الماجسـتير في الجامعـة الأميركيـة ببـيروت. عمل في الصحافـة اللبنانيـة والسـورية والكويتيـة. بـدأ مشـواره الصحـافي في يوليـو عـام 1955 في لبنـان، ثـم هاجر إلى الكويـت في 1963 فأقـام فيهـا وتـولّى منصـب مديـر التحريـر لعـدد مـن الصحـف والمجـلات الكويتيـة، عمـل في جرائـد الهـدف، والوطـن، كـما شـارك في إصـدار الأنباء عـام 1976 وتأسـيس الرأي العـام. عمل منـذ 1991 مديراً عامـاً لـدار سـعاد الصبـاح للنـشر والتوزيـع. يعـد مـن مؤسـسي الصحافـة في الكويـت وكان عضـواً في الحـزب السـوري القومـي الاجتماعـي مـن 1953 حتـى وفاتـه 2008.

فمن حقها علي أن أكون الوفي، وأنا كذلك تجاه سواها، رفاقاً وأهلاً وأصدقاء، فكيف والحال مع سعاد الصباح.

أجد اليوم وحيث أدرت وجهي أثراً لوردة من ورودها عالقة على الجبين، وكلمة نبيلة طيبة مزروعة في القلب والأذن. وإذا كانت سعاد الصباح تخجل من الاستماع إلى كلمة العرفان فليس أقل من أن تقرأها في عيدها الستيني الجميل، والذي أدعو الله أن يجعله محطة في قطار طويل العربات متناسق الألوان، فتظل سعاد الصباح قنديل حياة وضوء عمر يطول بالوفاء.

حاولت أن أدخل إلى هذا البهو المشرق: عالم سعاد الصباح كما عرفته وكما أعايشه منذ واحد وعشرين عاماً. بدأت بلقاء عابر عند البوابة الداخلية للقصر الأبيض، ذات عشية من تشرين الأول (أكتوبر) 1981. وبعدها، وبغير ما ترتيب أو قصد، غمرت سعاد الصباح عالمي كله بحضورها البهي وبسؤالها الدائم، وهي التي تستحق أن نسأل عنها في العشية والضحى والصبح. إنني على يقين من أن سعاد الصباح تملك طاقة الجذب التي يسمونها "الكاريزما" وكأنها ولدت معها. لقد عرفت أن هذه السيدة الطالعة على دنيانا كزهرة بنفسج وسط البرية والأشواك، قادرة على مسح الجراح، وعلى أن تكون الأم والأخت والصديقة في آن، وهذه نعمة من الله يختص بها من عباده من يحب.

بصعوبة أحاول اليوم أن أعود إلى أوراق صغيرة تختبئ بين دفتي الذاكرة الورقية، وإلى لحظات تجعل النسيان محالاً لأنها تدخل في تركيبة الوجدان وتشكل شموعاً في معبد الذاكرة النفسية. وفي كل هذا وذاك تخطر سعاد الصباح أمام العين كالشمس الطالعة من خلف الحجب، وتجعل نهارنا

وليلنا أرقاً بالمحبة، وآملاً بديمومة هذه الإطلالة التي لا تتغير فيها الابتسامة إلا إلى ضحكة، والضحكة إلى دعاء لك بالعافية، أعطاها الله منها كل ما تستحق، وكثير كثير الذي تستحق من الله ومن عباده الطيبين. لقد كتب لي القدر تحوّلاً في حياتي بعد لقائنا الثلاثي العابر فإذا بي أصبح الأسير بإرادته، ليس لها وحسب، بل ولذلك الكبير الذي رحت أبرمج ساعات المساء لأكون إلى جانبه، يوماً بعد آخر، ولأجده حاملاً لي في قلبه الأوسع من البادية، محبة أموت ولا أنساه ولا أنساها.

وحين كنت بتشجيع محب منه ومنها أرافقهما في رحلة إلى القاهرة أو جنيف أو لندن، كنت أعرف أنني قد سلمت أمري لمن يعرف قدر الآخرين، ويسلك في التعامل معهم درب كرامة محفوظة، وعفّة كاملة في اللسان واليد. وقد ظلّت هذه حالي مع الشيخ عبدالله مبارك الصباح، ومع الدكتورة سعاد الصباح حتى الخامس عشر من حزيران / يونيو 1991، حين سافر "أبو مبارك" تاركاً في حلق زوجه غصة وفي القلب لوعة وفي العين دمعة لا تغيب كلما حضر ذكره، والذكر دائم في بيته أمام صوره المتناثرة كشموع تكاد تقنعك بأنه لا يزال هنا يشعل سيجارته ولا يزال هناك يسألك "لم تأخرت.. عسى خير..". وها هي الأيام تمضي بي وأنا الصديق الذي سمع منها ذات مساء، وكنا نقف قدام الشيخ الكبير في الضباعية: "أنت واحد من أربعة أو خمسة أصدقاء حقيقيين". وها هو يا سيدتي أحد هؤلاء الأصدقاء يجلس الآن إلى طاولته في دارك وأمامه صورة صاحبه بابتسامته الوقورة، يحاول أن يسمح للذاكرة أن تقول بعض ما صانت في مغارة من الصور والكلمات على مدى آلاف الأيام في إحدى وعشرين سنة، ستظل ممسكة بعنق المودّة، فلا فكاك للحر إلا أن يكون أسير وفائه، ولا

حيـاء في القِيَـم العليـا وأولهـا ما ترسـمه سـعاد الصبـاح على رئتيك من شـهقة النـور المضيء.

... قبـل أن ألتقـي سـعاد الصباح كنت تلقيـت منها صوتاً هاتفيـاً تمتدح فيه كلـمات لي. وأشـهد أمـام اللـه أنني أسـتعيد صوتها اليوم كما كان قبل خمسـة وعشريـن عامـاً وأحـاول تلمّـس الفارق بـين نبرتها، وقـد كنت كاتباً قـرأتْ له، وبـين نبرتهـا اليـوم وأنـا رافـع لافتة "دار سـعاد الصبـاح"، فلا الفـارق يبين ولا شيء تبـدّل في التعامـل والتـصرّف الذي يجعل من سـعاد الصبـاح أيقونة بركة واحـترام، لـكل مـن يعمـل أو يتعامل معهـا أو يتصل بها لهـمٍّ في صدره.

مـن ذلـك أنهـا تـصرّ عـلى تأكيـد ثقتهـا بـك في موقعـك كصديـق أو كعامل معهـا. أذكـر المـرّات التـي كانـت تنعـم عـلي فيهـا بالسـؤال في تفضيـل كلمـة عـلى أخـرى في قصيـدة جديـدة فرغـت للتـو مـن كتابتهـا. أو هـي تسـألك: هـل الأجمـل لـو قلـت "إننـي نبـت الكويـت" أم "إننـي بنـت الكويـت" في مطلـع قصيدتهـا المشـهورة التي حملت عنـوان مطلعها هذه الـذي وقع عليه الاختيـار. ويـدل ذلـك في أعمـق معانيه عـلى التواضع في التعامـل مع الآخرين حتـى بالنسـبة للشـعر، وهـو قصيدهـا ومحـور حياتهـا الثقافيـة وإبداعهـا. ولكنهـا لا تجـد غضاضـة في أن تسـأل مـن تثـق به رأيـاً وأن تأخذ بهـذا الرأي.

***

مـن الصعـب عـليّ أن أقـول إنـه مـن المحـال أن يظـل صاحبـك كـما تعرفه، برغـم تبـدّل الظـروف والمعطيـات والآمـال والجـراح. ومـن الصعـب جـداً أن تجـد رفيقـك حيـث تعرفـه، فـلا تبديـل في صوتـه أو في سـلوكه أو في حنـوّه أو في ثقتـه بـك. ولكـن سـعاد الصبـاح، القويـة المتماسـكة، علمتنـي أن هناك

مـن لا يتبـدل، وإن فعـل فـإلى الأفضـل، وأن هنـاك مـن لا يرتوي مـن العطاء، وكأني بهـا تعشـق العطـاء بقـدر مـا يتمنـاه ويسـعد بـه المتلقـي. ولا أعنـي بعطـاء سـعاد الصبـاح، المادة وحسـب، بل هـذا العطاء الروحـي الذي تمطرك بـه فـلا تجـف عـلى فمهـا كلمـة "مشـكور" حتى يلحـق بهـا الدعـاء إلى "الله يسـلمك". وتتذكـر دائمـاً أن صحتـك غالية عليها فلا تنـسى تنبيهك إلى الحفاظ عـلى هـذه النعمـة وتذكـيرك بـأن لـك عندهـا البـاب الأوسـع في كل مـا يلـزم لحفـظ حياتـك صحيـة وسـليمة. وسـعاد الصبـاح، في هـذا المنحى تحديـداً، لا تحـصر اهتمامهـا بمـن تعـرف فقـط بل هـي تتجـاوزه إلى كل من يصـل صوته إليهـا مسـتجيراً مـن ظلم أو مـرض أو حاجـة للتعليم، وما أكثر هـذه الأصوات التـي وصلتهـا والتـي لقيـت في رحاب عطائها مـا كانت به تحلـم وإيّاه تتمنى ولـه تصـلّي. وقـد أنعـم اللـه عـلي، وفي عـام واحـد، أن أزكي لها ثلاثـة طلبة في بـيروت، واثنـين في سـويسرا وواحـداً في لنـدن، وجميعهم من جنسـيات عربية وديانـات مختلفـة، وكانـت سـعاد الصبـاح هنـاك، تقف عـلى بوابـة أقدارهم حاملـة لهـم مشـعل العـون الـذي مكنهـم مـن إكـمال الدراسـات الجامعيـة وتخرّجـوا لينضمّـوا إلى موكـب الحيـاة الفاعلة.

وإذا كانـت سـعاد الصبـاح تحرّم عـلى من يعمل في كنفها البـوح بما عرف أو بمـا يعـرف مـن نبيل أعمالهـا، فإنها لا تسـتطيع فـرض ذلك على الكـرام الذين قـرّروا أن يقولـوا مـا عرفـوا، وهـو الأقـل، ولتـبرز لـك صـورة هـذه السـيدة في إطـار مـن فضـة البحر وذهب الشـمس وخضرة الشـجر.

ولكـثرة مـا تكـررت حكايـات الطيبـين والطيبـات صرت أعـرف أن هـذه السـيدة الكبـيرة، وهي سـيدتي أولاً، تريـد لفعل الخير أن يؤتي ثمـاره خيراً دون أن يحرقهـا بنـار التباهـي بـه.

ولست في حل من سرد واحدة من هذه الحكايا التي عرفت، من غيرها، ولست في حل من ضميري إذا أغفلتها، لذلك، ودرءاً لما لا أريد ولما لا تريد، يسعدني أن أقرأ للباحث والكاتب الكبير الدكتور ميلاد حنا حديثاً في "الحياة" يشهد فيه أنه لولا سعاد الصباح لما كانت المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ولما كان لها المقر الذي تحلّ فيه في قاهرة المعز. كما يفرح القلب حين أطالع شهادة للروائي العربي المعروف الطاهر وطار، يتحدث في "القبس" عن دور سعاد الصباح في دعم كل الأدباء والشعراء والمؤسسات الثقافية ومنها "الجاحظية".

وأسأل النفس: ترى لو قرر الصامتون الكرام أن يتحدثوا، وهم في كل منتدى ومنظمة ومؤسسة، فما الذي سوف يقولونه عن سعاد الصباح؟ لقد باح وزير الشباب المصري الأستاذ الدكتور عليّ الدين هلال في خطاب له، بمناسبة تكريم سعاد الصباح ضمن نخبة من خريجي وخريجات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة عام 2000 بما ظلت سعاد الصباح تعتبره سراً عصياً على البوح، فإذا هي تقدم لجامعتها المنح السنوية لتمكين الطلبة المتفوقين من متابعة الدراسات الأعلى، وإذا بها تؤسس وباسم الراحل الكبير الشيخ عبدالله مبارك الصباح مكتبة لا نظير لها في مصر، تم افتتاحها في جامعة القاهرة.

ولا أخفي فرحي الطفولي حين ألمس وفاء بعض من أحسنت سعاد الصباح صنيعها في التعامل معهم، بقدر ما تغضبني بل تؤلمني أشواك الذين ينكرون العرف بالصمت أو بالمواربة في الحديث عنه.

"أنا لا أفعل ذلك لأتلقى الشكر من أحد يكفيني رضى الله علي". وهكذا تمضي قافلة الخير دون أن ترفع الحادية صوتها بالنشيد، مؤمنة بأن الله

وحده يستحق الشكر لأنه أتاح لها أن تكون في الموقع الذي تتمكن فيه من رفع الحيف عن إنسان أو تخفيف المعاناة عن كاهل متعب أو عن مريض مكلوم، أو عن طالب علم. إنهم بالمئات هؤلاء الذين لم يتمكنوا من ولوج دنيا الدراسة التي تمنوها، فكتب الله لكل واحد منهم درب نجاة وفتح لهم أبواب الأمل التي سكب مفاتيحها بالرحمة في قلب سعاد الصباح.

في زاوية حادة من شخصيتها يتحوّل هذا القلب الرحوم إلى نسر مفعم بالعنفوان. متى؟ حين يسيء صوت إلى شخص راحلها الكبير، أو يجرح كبرياءها قلم له ثمن أو له حقد. عندها لا تكاد تصدق أن هذه السيدة التي يوجعها بكاء طفل، هي ذاتها التي تشهر مخالب الغضب في الوجه، وليس من خلف شعار أو وجه مستعار. سعاد الصباح ترفض الإساءة حين يكون المقصد منها تشويه الآخرين لرموزها، وهي في ذلك لا تقبل الحل الوسط ولا تعرف المهادنة. في مرات كنت أنصح بألّا ترد على ما ينشر فتقول: "لو قالوا إني أمية لا أعرف القراءة والكتابة لصمتُّ، ولكن هذا الذي يقال أشد إيلاماً من أية فرية. لن أسكت وسوف أرد وليعلم كل من يجاوز الحد أن ظهري لا يطعن وعليه مجابهتي بالوجه لو يجرؤ". عنيفة هي وذات نصل حاد في كلماتها، ولكنها تبقى ضمن حدود كسر الطعنة دون تشويه الطاعن أو كشف المستور منه.

ترفض الظلم لو أصابها أو أصاب الآخرين أيضاً، وكثيراً ما انتصرت لمظلومين قرعوا ضميرها مستجيرين فوجدوا فيها صخرة أمان وينبوع قوة وعطاء.

.. ويقع الغزو الأسود وأنا في دمشق.. وحين أيقظني الرفيق فيصل صائب

رحمه الله ليبلغني النبأ الفاجع صبيحة الثاني من آب (أغسطس)، 1990، بادرت إلى إيقاظ الشيخ النبيل محمد عبدالله المبارك في لندن، ناقلاً إليه ما جاءني من الأخبار، فيذهب إلى والديه منبئاً بالحدث. ومنذ اليوم الأول وحتى يوم الحرية والتحرير كانت سعاد الصباح شعلة ملتهبة من النار والضوء في ساحات لندن وعلى منابر الولايات المتحدة والقاهرة ودمشق.

وبدا لي، من متابعة يومية لنشاطها، وأنا في القاهرة ثم في دمشق، أن هناك وزارة إعلام شعبية تعمل في كل صوب ومع عشرات المرجعيات القانونية والإعلامية دفاعاً عن وجود الوطن وعن حرية إنسانه. وعندما تقرر فتح المعركة الإعلامية في مصر، كانت سعاد الصباح رأس حربة الكويت في صدر العدوان.

وفي دمشق يتكرر المشهد وتتلقف الأوساط السياسية والثقافية حضورها الذي سبق التحرير بأربعة أيام فقط، وكأنه البشرى بولادة الكويت الحرة الجديدة. لقد جندت سعاد الصباح، خلال أيام الغزو الأسود، كل طاقاتها متعاونة مع محطات الإذاعة الخاصة في أميركا وبريطانيا، واستصدرت نشرة إعلامية خاصة في باريس، وحققت بعلاقاتها الثابتة مع اتحاد المحامين العرب ومع السفارات الكويتية ومع جامعة القاهرة فعلاً مؤثراً أبقى قضية الاحتلال حية في النفوس وأحيا الأمل بيوم عظيم يولد بالعمل له كل ساعة.

ولم يقتصر دور الشيخ عبدالله المبارك وسعاد الصباح على الكفاح الإعلامي والدبلوماسي والسياسي، بل كانت جذور ذلك تتجسد في الرعاية والاهتمام بالروابط والمنتديات الكويتية والعربية وباتحاد الطلبة الكويتيين في كل مكان. ولم تبخل في سبيل تحرير الوطن بالمال، وفيراً كان يتدفق، ولا

بالجهـد: أحاديـث إذاعيـة وبرامج سياسـية موجهة ضـد كارثة الغـزو العراقي الـذي جرّحهـا، "إذا كان الشـقيق يفعل بنا ذلك فماذا تـرك للعدوّ؟"، ولكنها لم تتوقـف عنـد الطعنـة بل حرّكـت جريمة الغدر فيهـا عنفوان النمـرة الجريحة فجـاء ردّاً قاسـياً وعنيفاً وعـارم الموجات.

واسـتطاعت سـعاد الصبـاح إيقـاظ الضمـير النائـم أو التائـه، وبذلـت في سـبيل قضيـة الكويـت مـا يذكره لها مئات الشـهود مـن رفاق نضالهـا الوطني العريض.

وليـس مـن الأسرار تلـك الدهشـة العارمـة بالفـرح التـي غمـرت نفوسـنا ونحـن نشـاهد عـلى التلفزيون، هبـوط الفرقة العسـكرية البريطانية الأولى في مطـار الكويـت، في السـاعات المبكرة من يـوم التحرير، فإذا بوجـه بهي نعرفه يطـلّ علينـا متقدمـاً مـع هذه القـوات حامـلاً علم الكويـت ليرفعـه عيناً على المطـار، وكان صاحـب هـذا الوجـه هو الشـيخ محمـد عبدالله مبـارك الصباح الـذي التحـق بدورة تدريبية سـبقت انخراطـه ضمن قوة المغاويـر البريطانية كضابـط ارتبـاط، فـترك دراسـته في جامعـة أكسـفورد ليكـون في موكـب أول العائديـن إلى الوطـن الأغلى.

"... أم لخمسـة: محمـد وأمنيـة ومبـارك والشـيماء، وولـدي البكـر الراحـل مبـارك المولـود 1961 والغائب 1973". بهذا تجيب سـعاد الصباح من يسـألها عـن وضعهـا العائـلي. إنهـا تتجاوز التعبـير المألوف بعـد رحيل الرجـل والزوج والصديـق وتعتـبر الأمومـة تـاج حياتهـا. أليسـت هي التـي تختار حين تسـأل عـن أحـب الألقـاب إليها: الشـيخة، الدكتورة، الشـاعرة، الأمـيرة أو... نعم: "أم مبـارك" هـو أحب الأسـماء إلى قلبـي وأقربهـا إلى روحي.

وإنني لأشهد، بالتجربة اليومية وعلى مدى سنوات وسنوات أنها تلغي هاتفها في حال من اثنين: الصلاة أو الإشراف على تدريس الأولاد.

في الأولى لا عجب، فالالتزام الكامل بشعائر الدين وفروضه مرتبط بحياتها اليومية منذ عرفتها. حين يعلو الأذان تستأذن في هدوء وتنسحب من مجلسها، لتعود بعد دقائق وقد غمر وجهها الضوء وهطلت تمتمات الدعاء على شفتيها حمداً لله. أما الديار المقدسة فلا أحسب أن مانعاً حال بينها وبين أداء العمرة على مدى أكثر من ثلاثين سنة، بدأتها بالعشر الأوائل ثم بالعشر الوسطى ثم بالعشر الأواخر. ومنذ ثلاث سنوات انصرفت سعاد الصباح عن كل مشاغل الدنيا لتقضي شهر رمضان المبارك كاملاً في الرحاب المقدسة، مع الحرص على أن يشاركها في أداء الشعائر خليط من الأهل والأصدقاء لا ينقطع عديده من كل صوب: أفواج تجيء وأفواج تسافر وهي في لقاء الجميع تؤدي ما يسعد النفس وما يرضي الله عزّ وجلّ.

تبقى الحالة الثانية: تطلبها ولكن الجواب هو أنها بعيدة عن الهاتف. والصحيح أنها في تلك الساعات تكون في غرفة هذا الابن أو تلك البنت تتابع الدراسة معهم لأنها تصر على أن وجودها إلى جانب الابن أو الابنة ضروري لتأكيد المزيد من الاهتمام بالدراسة.

وخلال العامين المنصرمين بات غيابها عن الكويت وبقاؤها في بريطانيا، يزداد أمداً. ولم يعرف الناس أن سبب غيابها الأساس هو حرصها على البقاء مع مبارك وأمنية والشيماء الذين يتابعون الدراسات الجامعية في بريطانيا، برغم توزّع الروح بينهم في هذه الغربة وبين محمد وأسرته وأحفادها الذين تضيق الدنيا بها شوقاً إليهم فتخصص الصيف بكامله لمرافقتهم جميعاً في عطلة طويلة، تطوف بهم الأماكن الجميلة والممتعة للأطفال

الذيـن ولـدوا لابنهـا محمـد ولكريمتها أمنية وجعلـوا حياتها أكـثر غنى وجمالاً وفرحاً.

ومـن جميـل الحـظ كـما أشرت أننـي رافقـت الدكتـورة سـعاد الصبـاح إلى لنـدن وجنيـف والقاهـرة وبـيروت ودمشـق في رحـلات عمـل: مؤتمـرات أو نـدوات أو أمسـيات. أذكـر مـرة زيـارة إلى القاهـرة لحضـور فعاليـات معـرض الكتـاب ونـدوة اقتصاديـة. كنـا في جنـاح الراحل الكبير مسـاء وعندمـا خرجنا سـألتني أيـن أذهـب في تلـك السـاعة. بعـد جـوابي سـألتها: ومـاذا سـتفعلين الآن؟ قالـت: تعـال. ونظـرت إلى طاولـة توزعـت عليهـا أوراق العمـل التـي سـتتلى في النـدوة، صبـاح اليـوم الثـاني، وعليهـا ملحوظـات وإشـارات بالحـبر الأحمـر. قالـت: "هكـذا سـأمضي مـا تبقـى مـن الليـل. لا أسـمح لأحـد أن يحسـب مشـاركتي في النـدوة ديكـوراً مضافاً. إن بـين المؤتمرين رجـالاً بارزين في تخصصاتهـم ويجـب أن أكـون في سـوية الحـوار الـذي سـوف يجـري غداً".

في شـخصية سـعاد الصبـاح جوانـب لا تخطئهـا العـين ولا هـي بالممارسـة خفيـة عـلى أحـد ممن رافقـوا ويرافقـون مسـيرتها اليومية، سـواء في البيت أو في المكتـب أو حـين تكـون عـلى سـفر.

سـعاد الصبـاح، مـن خصالهـا، القـدرة عـلى التسـامح والعفـو حـين تملـك الأمـر، وكثـيراً ما لمسـت هـذه القدرة فيها عندمـا يكون في مقدورها التشـفي. في تلـك اللحظـات يعـاود سـعاد الصبـاح ضعفهـا الإنسـاني وتمسـح عـن كفّهـا القـوة لتعيـد إليـه ملمس الأمومـة الذي لا يفـارق أعمالها. وفي سـعاد الصباح خصلـة مـن خصـال الكبـار وحدهم وهـي الخجل. وقـد لا يصدق المـرء الذي يعـرف نفسـية النمـر التـي تحكم عنفوانها. قـد لا يصدق أنها هـي ذاتها التي تطأطـئ رأسـها خجـلاً أمـام هاتف شـكر أو رسـالة عرفان.

وهـذا الخجـل النبيـل يغمـر روحهـا إذا دخلـت قاعـة مؤتمـر تحـضره أو اجتـماع تشـارك فيه، وهو أكـثر حين تقف أمام جمهورهـا فيمطرها بالتصفيق والترحيـب إذ تطـل عليـه مـن فـوق منـبر الكلمـة الشـعرية وخـلال إلقائهـا القصيـد. وقلـما اسـتطاعت سـعاد الصبـاح أن تواجـه عيون المحبـين بغير عين خجولـة تـداري فرحهـا بإطراقـة أو بابتسـامة أو تتشـاغل بأوراقهـا هربـاً مـن هـذا الاحتفـاء بحضورهـا الـثري. يلازمهـا هـذا الخجـل برغم مئـات المؤتمرات والنـدوات والأمسـيات التـي شـهدتها، ولا يتخـلى عن عينيها وهـي تبحث عن ملجـأ للـروح مـن دفـق المحبـة الـذي يمطرهـا بـه النـاس، وهـي التـي عرفت وتعرفـت وصافحـت وتحدثـت إلى الآلاف منهـم في الكويـت ولبنـان وسـورية والأردن وسـلطنة عـمان والبحريـن والإمـارات والسـعودية ومـصر والسـودان وتونـس وغيرهـا مـن ربـوع الدنيا.

وبعد..

ما يمكن قوله عن سعاد الصباح كثير وكثير، لعل بعضه يتجسد في هذا التوق إلى إعلاء قيمة الوفاء، وعندها هي الأولى في سلم القِيَم.

وقـد لا يخطـر في البـال أن مدرّسـة اللغـة العربيـة التـي علّمتهـا في المرحلـة المتوسـطة لا تـزال معهـا، في موقـع مـا، وقـد حملـت مـن السـنين الطـوال كثـيراً. مـن هذا الوفـاء موقفها تجـاه جامعتها وأسـاتذتها وصديقاتها في سـني الصبـا والشـباب وأصدقـاء لزوجهـا الراحـل الكبـير تعرفـت إليهـم منـذ أكـثر مـن أربعـين عامـاً وتديـم السـؤال عنهـم وزيارتهـم وأسرهـم كلـما ذهبت إلى بـيروت والقاهـرة. ووفـاء سـعاد الصبـاح للمقهورين من أهـل الكويت أو من المقيمـين فيهـا دون الهويـة كبـير في حجمـه وفي تواضعهـا أمـام مـا فعلت من أجـل المئـات الذيـن حرمـوا، في وقـت ما، مـن الدراسـة أو من العمـل فكانت

هـي "رئيـس دولـة" المسـتضعفين والفقراء.

لقد جسّـدت سـعاد الصباح وفاءها للمبدعين في حياتنا الثقافية حين قررت تكريمهـم أحيـاء. "يجـب أن يسـمعوا كلمـة الشـكر مـن الأمـة التـي أعطوهـا أجمـل مـا أعطاهـم اللـه مـن موهبـة. يجـب أن يسـمعوها هـم لا أولادهـم وحسب".

لـو شـئت أن أكمـل في التذكـر لـكان عـلي أن أكتب مئـات الصفحـات، دون أن أخـشى القـول الشـعبي عـن الشـهادة المجروحة، ومـا أنا المؤمـن بذلك. إن شـهادتي بسـعاد الصبـاح لن تكون الشـهادة الكاملـة إلا حين أكتبهـا وأنا بعيد عنهـا، وعـن هـذه الـدار التـي فتحـت لي قلبهـا وعنوانهـا يـوم لم يذكـرني أحد ممـن قاتلـت تحـت رايتهـم حتـى بالسـؤال العابـر عـن الحـال، والـذي كان بالتأكيـد رماديـاً لـولا إشراقـة الفجر التـي تطلّ علي بالسـؤال كل يـوم: "كيفه أسـتاذي". "أنـا" بخـير يـا سـيدتي، مـا دمـت أنـت بخـير، والسـلام عليـك مـن الأمـس إلى اليـوم وإلى ألـف ألف غد، يا سـيدة النفوس الكبـيرة ورافعة رايات المحبـة والقـوة والعطـاء والوفاء.

سـلام عليـك في أيامـك المديدة، مديـدة مديدة تجيء، ومعهـا أحلام الأطفال الذيـن ينشـقون من آبائهـم وأمهاتهم فوح عطر أيامـك الرائعة.

الشّاعرة.. الشّاعرة

سَعدِيّة مُفرح[1]

سأكتب عن سعاد الصباح إذن..

سأسجل شهادة على زمن شهيد ننتمي إليه معاً، وسأعلن، منذ البداية، انحيازي لمحض الشعر فيه وأقاوم رغبة في الكلام، أعرف أنها ستتحقق أخيراً.

فللكلام الكثير وجه على علّاته المملة حسن.. بالكلام وحده نستطيع أن نبوح بما نريد وما لا نريد أن نبوح به.. الكلام، إذن، سيكون الشهادة، ربما لأنه وحده سيحيل إلى الشعر، والشاعرة التي أشهد منذ البداية أنها لا تنزعج من شيء مما يمكن أن يكون تماسّاً مع تجربتها الشعرية والإنسانية، قدر انزعاجها من الكلام المجاني الذي أدخلته العرب في باب المديح، ربما لأنه لا يقول شيئاً لأنه لا يريد سوى أن يقول، مجرد أن يقول!!

سأقول إذن، لا لأنني أريد أن أقول شيئاً من ذلك النوع من القول، ولكن لأنني أريد أن أقول ما ينبغي أن يقال عن امرأة شاعرة أزعم أنني أعرفها إلى حد تقرير ذلك.

سأقول إذن عن سعاد الصباح.. هكذا..

1- كاتبة وشاعرة ومستشارة إعلاميّة وصحفية كويتيّة تعمل كمحرّرة وكاتِبة في جريدة القبس، وعضو تحكيم جائزة البوكر وعدد من الجوائز العربية الأخرى. ولدت سعديّة مفرح سنة 1964 في مدينة الجهراء. حاصلة على بكالوريوس في اللغة العربية من جامعة الكويت عام 1987. عملت محرّرة ثقافية في القسم الثقافي في الوطن والقبس.

وسأدوّن في هذه الأوراق شيئاً مما يمكن أن يدوّن عن هذه الشاعرة الاستثنائية ليس في زمانها وحده، وليس في مكانها وحده، وليس في خصوصيتها العائلية وحدها، وليس في هويتها الإبداعية وحدها، ولكن بكل ذلك معاً.

امرأة تبدأ بإصرار... يشبه السكّين في رهافته وحدّته، رحلةً شعرية صعبة، برغم أنها تملك أداتها الأولى حيث الموهبة قرار الممارسة، وحيث الوعي بهذه الموهبة وحدودها خطوتها الأولى نحو تحقّقها الأخير، ورحلةً إنسانية أصعب برغم أنها تسير خلالها على طريق مفروش بالمجد العائلي التليد المسيّج بزهو السلطة الموروثة ورفاهية الثراء الموروث أيضاً، فالصعوبة عنوان الطريق، وعلى حدّيها الأدنى والأعلى توزّعت مقولات الشاعرة المعلنة وغير المعلنة.

هكذا، إذن وجدت سعاد الصباح نفسها، وفقاً لتفاصيل الرحلتين، وهي تعلن ذاتها شاعرة تخوض في تضاريس دقيقة من الشعر والتاريخ والسياسة والنقد والعائلة والحب والوطن في هويته المحليّة وهويته القومية... وما يمكن أن يكون خيطاً تنتظم فيه كل هذه المفردات دون أن تطغى مفردة على أخرى تحت وطأة هاجس ما..

"شيخة" بالولادة.. تنتمي لأسرة حاكمة، وزوجة لواحد من الاستثنائيين في تاريخ بلادها، وباحثة في المجال الاقتصادي، ولكنها قبل هذا كله بتاريخ كامل ربما، هي شاعرة تعي تلك الشعرية وتحتفي بتحققها في زمان لا ينتظر أن تكون فيه امرأة من هذا النوع شاعرة، ولا يتوقّع منها، إن كانت، أن تحتفي بتلك الشعرية... لكنها كانت واحتفت..

شاعرة محتشدة بظنون الكلام الأليف، والكلام المخيف، وبسماوات لانهائية من الشعر والنقد والصلاة والشك والأصدقاء، تمضي، ونمضي نحن الذين ربما نكون نظرنا لها، ذاتَ حلم شخصي مكسور أو هزيمة مضنية بخصوصيتها وكأنها المرأة التي لا تعاني ولا تنكسر ولا تنهزم ولا تظلم... ولا تحلم إلا ليتحقق حلمها قبل أن تحلم به... أليست هي سعاد الصباح؟ أليست هي الشيخة التي تنتمي لأسرة تحكم واحدة من أكثر دول العالم ثراء؟! أليست هي الأميرة الجميلة التي يخطفها الفارس الأمير على حصانه الأبيض ليتزوجها ويعيشا في ثبات ونبات ويخلفا الصبيان والبنات؟! نعم نمضي نحن قليلاً.. قليلاً فقط، في الكلام، محض الكلام، ووجهه الحسن، برغم ما يفيض به علينا من علل تتجاوز حدود امرأة اسمها سعاد الصباح نحو نصف وطن من النساء يمتدّ من الماء إلى الماء.. ليصير استفزازاً للنصف الآخر من ذلك الوطن بمجرد وجوده الأزلي، بل لتصير أي أنثى فيه وحدها استفزازاً سرّياً لتلك الذكورية الجاهلة بامتياز قومي تاريخي عريق. أما إن تجرأت هذه الأنثى لتكون امرأة فهي تتحوّل فوراً لأن تصير استفزازاً معلناً.. ثم يتضاعف هذا الاستفزاز عندما تحاول هذه المرأة أن تكتشف تلك الينابيع السرّية للشعر حيث الصدق ضرورة للتحقق.

فماذا يحدث إن كانت هذه الأنثى التي قرّرت أن تكون امرأة تحترف كتابة الشعر تنتمي لعلية القوم وتحمل لقباً عائلياً نبيلاً؟! لهذا الوضع، بدوره، وجه، على علّاته المتوارثة، حسن، ولوجهه الآخر على حسناته الحلمية علّة لا أعتقد أن أحداً عانى منها كما عانت منها سعاد الصباح، التي كان عليها دائماً أن تكون النموذج الرائد وأن تنحني لعواصف الادّعاء الهوجاء دون أن تنكسر، وبين الممارستين خيط رفيع ظلّت سعاد الصباح

تجيد التعامل معه بدقة لم تفقدها عفوية وبساطة يشبهان الشعر في محضه وضروريته وجغرافيته وطقوسه أيضاً. فأن ينتمي مبدع للسلطة، حتى وإن كان ذلك انتماءً عائلياً، أصلاً، يعني أن يعيش بين ظلال كثيرة من الظنون الآثمة وغير الآثمة وفقاً لمفهوم السلطة وتداعياتها في أي دولة من دول العالم الثالث، فهو معرّض منذ البداية وبالضرورة لمن يرى فيه ظلاً لهذه السلطة، من ناحية؛ مما يعرّض إنتاجها لنظرات التشكيك من قبل النقّاد قبل المتلقين... ومن ناحية أخرى من يرى فيه أداة من أدوات هذه السلطة؛ مما يعرّضه هذه المرة لنظرات نقدية استرضائية قد ترضي نجومية الشاعر ولكنها تخدش جوهر الشعر فيه. كما أنه يعرّض من ناحية ثالثة لنظرة خاصة من قبل السلطة التي ترى فيه ما لا تراه في الآخرين، وبالتالي فهي تتوقع منه ما لا تتوقعه من الآخرين.

لكن سعاد الصباح، ولعلّ هذا أهم ما حققته بالفعل، نجت من هذا ومن ذلك، إلى حد ما على الأقلّ، لأنها وبذكاء فطري انحازت لمحض الشعر في بناء مكوّنات شخصيتها الشعرية، دون أن تخفي اعتزازها بانتمائها العائلي الرفيع، ذلك الانتماء الذي أرى أنه أضاف بالضرورة صعوبة إضافية، حتى وإن كانت غير معلنة أو مقصودة، بدلاً من أن يذلل صعوبة متوقعة تعترض طريق امرأة، محض امرأة، تبدأ، محض بداية!!...

لكن المثير فعلاً أن سعاد الصباح استفادت، مثل غيرها من المبدعات العربيات، دون قصد، من كل تلك المعطيات التي تحيط بتجربة أي امرأة مبدعة في أي مجتمع ذكوري، فمثل هذا المجتمع يقدِّم، دون أن يدري لحسن الحظ، لمثل هذه المرأة أول أدوات أو شروط الجودة والأصالة لممارسة الإبداع الشعري أو أي إبداع مشابه، وهو الصدق والجرأة المتناهية. فالمرأة

التـي تختـار الشـعر رهانـاً لحياتهـا يفـترض أنهـا منـذ البـدء تعـرف صعوبـة الاختيـار ولذتـه، وتصـير بالتـالي مسـتعدة لإنجـاز تجربتهـا الشـعرية الحـرة، حتـى وإن تـم ذلـك في مجتمـع ذكـوري قامـع ورافـض ومحـارب لحميميـة المـرأة، مادامـت قـد اسـتطاعت عبور الـبرزخ الـسرّي الدقيق المـؤدي إلى جنة الشـعر وناره.

وسـعاد الصبـاح كانـت واحـدة مـن أوليـات الـلائي اسـتطعن عبـور ذلـك الـبرزخ... كانـت، بأسـئلتها.. تـزرع دهشـة معلنة في محيـط القبيلـة المأخوذة بجـرأة امـرأة تكتـب شـعراً ثوريّـاً، لا لتوقعـه باسـم مسـتعار ولا لتخفيـه في الـدرج الـسرّي بخزانـة ملابسـها، ولكـن لتنـشره عـلى المـلأ صادحـاً في فـراغ مهيـب مـن خـوف مـوروث ورهبـة مزمنـة وكثـير مـن الأحـلام المكسـورة.

وبمـدى... يشـبه الخـضرة المتمنّـاة باتّسـاعه، كانـت تعلـن حضورهـا حيـث تغيـب تفاصيـل مهامّهـا الأثـيرة على هامش اليـوم والليلة، لتعيـد توزيعها من جديـد عـلى هامش تاريخهـا كله، ولعله تاريخنـا أيضاً، نحن النسـاء العربيات الـلاتي قـدر لهـن أن يتعاطين الشـعر والكتابة:

يقولون إن الكتابة إثم عظيمٌ...
فلا تكتبي
وإن الصلاة أمام الحروف... حرامٌ
فلا تقربي
وإن مداد القصائد سمٌّ...
فإيّاك أن تشربي
وها أنذا
قد شربت كثيرا

فلم أتسمم بحبر الدواة على مكتبي
وها أنذا...
قد كتبت كثيرا
وأضرمت في كل نجم حريقاً كبيرا
فما غضب الله يوماً عليَّ
ولا استاء منّي النبيّ...

ولعلّنا نكتشف الآن أن سعاد الصباح التي أصرّت على خيار الكتابة منذ البداية أصرّت في الوقت ذاته على خيار الخصوصية والجرأة، حتى وهي تكتب عن تلك المنطقة الحميمة في حياة أية امرأة شرقية. فهي بدلاً من أن تستسلم لحدود المساحة الشعرية العاطفية التي اعتادت الشاعرات العربيات المعاصرات قبلها بالذات أن يمارسن شعريتهن ضمنها، اختارت أن تكسر هذه الحدود وتتجاوزها إلى حيث يمكن أن تكون نموذجاً للمرأة الجديدة التي ينبغي أن تكون الشريك الفاعل بدلاً من أن تكون الشريك المتلقي في أي علاقة بين رجل وامرأة:

أريد أن أكتب إليك...

لا لأرضي نرجسيتك كما تظن

ولكن لأحتفل

- ربما للمرة الأولى -

بميلادي كامرأة عاشقة.. وبتفجير انفعالاتي في وجه هذا العالم...

فهل في مثل هذا ريادة ما...؟ ربما.. ولكنه، على أية حال، يكفي على الأقل، لاسترجاع صورة تاريخية بالنسبة لي ولجيلي كله في الكويت، ذلك

الجيـل الـذي قـدّر له أن يتماسّ مع أشـعار سـعاد الصباح عـبر المنهج الدراسي المقـرر عـلى طلبـة الثانويـة العامـة، صورة ترسـم ملامح شـاعرة لا تبعـد كثيراً عـن زمـان ذلـك الجيـل وإن سـبقتها ببضعـة أعـوام شـعرية كانـت كافيـة لـكي تجعـل منهـا المرجعيـة النسـائية الأولى التـي تنبـع مـن تاريخنـا الحميم، وتتمـدد عـلى تفاصيـل جغرافيتنـا المحليـة الخاصـة، والبدايـة التـي لا تشـبه بداياتنـا مـع الشـاعرات العربيـات الأخريـات اللائي يرسـمن لنـا في قصائدهن بسـاتين حلميـة وثمـاراً لم نتـذوق برتقالهـا الشـهي وهـو يتـدلى مـن أشـجار لم نرهـا إلا في كتبنـا الدراسـية التـي تتحـدث عن مواسـم الآخريـن وجغرافياتهم البعيـدة كأنهـا الحلـم الجميل.

ولكـن كتابنـا المـدرسي لمـادة النصـوص الأدبيـة في ذلـك العـام بالـذات كان مختلفـاً عـمّا درسـناه مـن كتـب شـعرية في أعوامنـا الدراسـية الماضيـة، حيث كنـا عـلى أهبـة تـرك مقاعـد المدرسـة الثانويـة بزيّهـا الموحّـد الممـلّ وجرسـها الصاخـب الزاعـق في بريـة أحلامنـا الطازجـة، عندمـا اكتشـفنا أن هناك شـعراً لشـاعرة نسـمع باسـمها لأول مـرة، في ذلـك الوقـت، يمكـن أن يكـون مـادة لأسـئلة امتحـان الثانويـة العامـة الرهيـب، وفي الوقـت نفسـه مادة مسـتعارة لرسـائلنا الورديـة المختفيـة بنـزق وحيـاء بـين أوراق الكتـاب المـدرسي الأثـير، بانتظـار أن تجـد تلـك الفسـحة الزمنيـة الممتـدة مـا بـين سـور ثانويـة البنات وسـور ثانويـة البنـين القريبة.. لـتروح أو تجيء!! وكانت عفوية الشـعر في تلك الرسـائل ومدلولاته الإنسـانية التي تليق بمراهقتنا الأولى كافية لأن نحتفي، في المنهـج وفي الحياة، بشـاعرة اسـمها سـعاد الصبـاح وبقصيدة عنوانهـا (جنتي) ظلّـت تسـكن في ذاكرتنـا حتـى عندما غادرنـا تلك المرحلـة، أو لعلهـا غادرتنا.

وإذا كان لبعـض زميـلات تلـك المرحلـة أن يظـلّ تماسّـهن بسـعاد الصبـاح

محكوماً بتلك "الجنة" الحالمة وتداعياتها في حياتهن الجديدة، فإن تماسّي أنا معها اتخذ بعد ذلك أكثر من صورة لم تبتعد به عن صورة تلك الجنة وتداعياتها الحلمية، وإنما أضافت لها أبعاداً إنسانية خاصة...

هل أقول إنني ما زلت مسكونة بتلك الكلمات المشجّعة الحميمة التي بادرتني بها سعاد الصباح بعد أن شاركت في أول أمسية شعرية لي خارج أسوار الجامعة؟

ولكنني كذلك.. عندما هاتفني منظّم الأمسية الشعرية التي كان من المقرر إقامتها في رابطة الأدباء يدعوني للمشاركة في هذه الأمسية، لم أتردد بسؤاله عن الأسماء الأخرى التي تمت دعوتها، فذكر أربعة أو خمسة أسماء لشعراء كويتيين معروفين من بينهم اسم الدكتورة سعاد الصباح، بالإضافة إلى اسم شاعر شاب في مشاركته الشعرية الثانية أو الثالثة. وكأن محدثي أحس بما يجول بخاطري فقال ضاحكاً: الحقيقة أن جميع هؤلاء الشعراء قد اعترضوا على مشاركتك أنت وزميلك الشاب في أمسية كبيرة كهذه معهم، والوحيدة التي لم تحتجّ ولم تسأل كانت هي الشاعرة سعاد الصباح... هل أقول إنني تشككت في ما يقوله ذلك الرجل؟ ولكنها كانت اليقين ذاته بعد الأمسية بكلماتها المشجعة وإطرائها الحنون وطيبتها المتبدّية من بين الكلمات.

هل أقول إنني ما زلت مسكونة بفرح الجائزة الشعرية الأولى التي فزت بها في حياتي؟.. ولكنني كذلك. ومازالت جائزة سعاد الصباح الأولى التي فزت بها عن كتابي الأول "آخر الحالمين كان" هي الأهم بالنسبة لي، ربما لأنها الأولى... ونحن ضعفاء أمام فرحنا الأوّل. ولعلّ هذا أهم ما يميز جوائز سعاد الصباح الشعرية عن غيرها من الجوائز الشعرية في الوطن

العـربي، إذ إنهـا لا تمنـح إلا لمن هو دون الثلاثين مـن العمر، تنجح في أن تكون الفـرح الأول لمـن تمنـح لـه مـما يضيـف لمعناهـا معنـى إضافيّـاً لعلّـه الجدير بتمييزها..

وماذا بعد..؟

هل قلنا عن سعاد الصباح كل ما أردنا قوله؟

بالتأكيد لا..

ولكننا على أية حال نسـتطيع أن نقول أيضاً إن سـعاد الصباح تنجو، وتنجو القصيـدة بهـا، عـبر مـدى متّسـع مـن الشـعر في معنـاه الـذي يتجـاوز حدود التعريفـات النقديـة، إلى آفـاق لا حـدود لهـا، بهـا.. وبـين نجاتـين متناوبتـين تذهـب إلى طـرف الدهشـة الأخـيرة لتكون الشـاعرة.. الشـاعرة!!.

سعاد الصباح.. ظاهرة إبداعيّة مركّبة

زكَريّا نيل[1]

كانت مناسبة رائعة أن تبادر صفوة من الأدباء والمثقفين، إلى المشاركة التلقائية، في تكريم الأديبة الكويتية الشاعرة المتواصلة العطاء الفكري والفني والاجتماعي، الدكتورة سعاد الصباح.. وكانت المناسبة اختيار "دولة الكويت" الشقيقة، لتكون عاصمة للثقافة العربية في العام الحالي من الألفية الثالثة لميلاد المسيح عليه السلام، وفي هذه المناسبة كان هناك من يرصدها من بعيد حتى جاء وقتها..

كان "المنتدى الثقافي المصري" اتخذ قراراً برئاسة الدكتور عبدالعزيز حجازي الرئيس الأسبق لمجلس الوزراء المصري، بإصدار "كتاب" في تلك المناسبة القومية -الكويت عاصمة للثقافة العربية- وفي هذا الكتاب يقدم من يرغب من المثقفين أو الكتّاب الأصدقاء دراساتهم أو "شهاداتهم" الشخصية عن مجمل الإنجازات الأدبية والفكرية لهذه الشاعرة المتميزة.. وعن دورها الكبير في إثراء الحركة الثقافية والأدبية والإنسانية بإنتاجها الغزير المتواصل الأداء عبر أربعة عشر من الإصدارات الشعرية، غير عشرة من الإصدارات الأخرى في مجالات حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق والمرأة الخليجية ودورها في مشاركة القوى العاملة، وعن زوجها الراحل

1- صحفي مصري من أهم كتّاب الأعمدة، ومحلل في جريدة الأهرام خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي.

صقـر الخليـج، عبداللـه المبـارك الصباح.

والحقيقـة.. أننـي كنـت في حـيرة مـن أمـري تجـاه الإدلاء بشـهادتي في حقل رحـب الأرجـاء متعـدد الإشـعاعات.. حقـل إبداعي إنسـاني يتّسـع للعديد من الدراسـات، التـي قـد يمكنهـا أن تتنـاول شـاعرة وكاتبـة ومحـاضرة وربـة أسرة رائعـة، وقرينـة زوج عظيـم كان صديقـاً ومعلّماً وأخاً. وعـلى الرغم من زعمي أننـي قريـب مـن الأسرة ومـا زلـت صديقـاً وأخـاً حميـماً، إلا أننـي أمـام هذه الظاهـرة الثقافيـة المركبـة المتمثلـة في الشـاعرة سـعاد الصبـاح أعلـن اعـترافي مـرة أخـرى بالعجـز عـن الإحاطـة بمـا انطـوت عليـه هـذه الشـخصية المركبة مـن إنجـازات ذات بدايـات نـادرة دون نهايات لتعداد مركباتهـا التي ما زالت متواصلـة العطاء.

أولاً- الوفاء:

ومـن كالشـاعرة سـعاد الصبـاح يمكـن أن يـضرب بـه المثـل في الوفـاء. كتاب مـن 547 صفحـة مـن الحجـم الكبـير كان بمثابـة شـهادة وفـاء مـن "سـعاد الصبـاح" إلى أسـتاذها الراحـل الكبـير عبدالعزيـز حسـين الـذي مازلنـا ننتظـر صـدور مذكراتـه القيمـة عـن الكويـت.

لكـن هـذا الكتـاب الـذي أصدرتـه سـعاد الصبـاح إجـلالاً وتقديراً لأسـتاذها الراحـل لم يكـن سـوى تعبير صادق عن الوفاء الإنسـاني.. وفـاء تلميذة لمعلّمها تحـت عنـوان عبدالعزيـز حسـين.. وحلـم التنويـر العـربي، قالـت عنـه: عَرَفَتْه أجيـال أربعة.. أسـتاذاً، ومُديرَ معارف، ودبلوماسـياً، ووزيـراً. وفي كل المناصب سـعيت إليـه ولم يتبَّدل!!

ومضـت سـعاد الصبـاح تقول ما لم تقله تلميذة في أسـتاذها، سـوى ما قالته

الدكتورة سُهير القلماوي في أستاذها الراحل العظيم الدكتور طه حسين..

قالت سعاد الصباح: "كنت طالبة في المرحلة المتوسطة عندما كان "أستاذ الكُويت" عبدالعزيز حسين مديراً للمعارف"، لاحظ عبارة أستاذ الكُويت، وأضافت: "ومن خلال الشهادة المتوسطة التي تعدل في حساب الحِقبة ما تَعنيه الشهادة الجامعية اليوم، فيُوقِّعها رئيسُ مجلس المعارف الأعلى الشيخ عبدالله المبارك الصباح تقديراً لأهميتها.. كانت بداية حياتي الجديدة سؤالاً وجواباً بينه وبين أستاذنا الكبير.. بعدها بدأت أعرف ما الذي يعنيه الأستاذ عبدالعزيز حسين لأهل الكويت.. إذ كان اسمه يتردّد في أمسياتنا، وكان الشيخ عبدالله المبارك هو صاحب الحديث الذي يعطي صاحب المعارف قدره، ويرى فيه صورة المواطن الصلب الذي لا تخضع آراؤه لغير قناعاته.. لقد عرفنا في أستاذنا الكريم صفات الاقتدار والترّوي والبحث عن الحقيقة.. والوقوف إلى جانبها أيّاً كانت الحسابات والظروف".

ولأن الدكتورة سعاد الصباح صاحبة فروسية في ميادين الثقافة والشعر والإبداع.. كانت أفكارها تتجه تلقائياً نحو تكريم المبدعين.. نعم، عندما تجاوز ثروت عكاشة البعدَ التَّنويري للمبدعين أبت إلا أن تكون حارسةً لإخراج إبداعاته إلى النور في إصدارٍ أشبه ما يكون بالموسوعة طوفت به الآفاق إلى خارج الحدود وتحت بُنيةٍ من كلمات مضيئة وغير مسبوقة في تاريخ فَنِّ العنوان: وردةٌ في عروة الفارس النبيل ثروت عكاشة..

وليس مبالغة القول: إن من يريد أن يقدم شهادة أمينة بشأن شاعرة مثل سعاد الصباح لمجرّد أنها شاعرة تحدّت الزمان وانتصرت على ملابسات المكان، يكون كملاح ينقصه عمق التجربة في بحر ليس له شواطئ.. وها هي سعاد الصباح وربما رائعتها امرأة بلا سواحل توقعني في المأزق، ولم

أستطع أن أشدّ نفسي بنفسي، بعيداً عن سحر الكلمة وعمق العاطفة ومرارة الاستسلام، وأدركت أخيراً أنني ليس سوى مراقب على شاطئ لا يستطيع أن يبارحه إلى شاطئ آخر، إلا بعد أن يفيق من أحلام اليقظة، وهو لا يدرك أنه مجرّد شاهد يدلي بما عنده ثم يرحل بعيداً عن ثورة الغضب..

ومع ذلك لقد عدت إلى رائعتها امرأة بلا سواحل التي أراها جديرة بأن تكون قمة في عاطفة تسبح في سماوات الصوفية الروحية:

تقول:

كم غيَّرتني الحرب.. يا صديقي..
كم غيَّرت طبيعتي..
وغيَّرت أنوثتي..
وبعثرت في داخلي الأشياء..
فلا الحوار ممكنٌ..
ولا الصُّراخ ممكنٌ..
ولا الجُنون ممكنٌ..
فنحن محبوسان في قارورة البكاء!!.

هنا يجيء جرح الغزو الشيطاني الغائر.. غزو من اخترقوا حدود الأمانة الإلهية التي يفرضها حق الأخ على أخيه بل الجار على جاره.. لكنها وقعت وإن كانت دُحرت.. فماذا تقول الشاعرة سعاد الصباح؟

يا سيدي:
ما عدتُ بعد الحرب.. أدري من أنا
أقطةٌ جريحةٌ؟

أم نجمة ضائعةٌ؟
أم دمعةٌ خرساءْ؟
أم مركبٌ من ورق
تمضغه الأنواءْ؟
أين تُرى سنلتقي؟
وبيننا مدائنٌ محروقةٌ
وأمّةٌ مسحوقةٌ..
وبيننا داحسُ والغبراءْ
ومضت تقول في ملحمتها البكائية:
فهل هناك فرصة أخرى..
لكي تُحبَّني..
من بعد ما حوّلني الحزنُ إلى أجزاءْ
قد سَرَقَتني الحربُ من طفولتي..
واغتالت ابتسامتي..
ومزَّقت براءتي
واقتلعت أشجاريَ الخضراء..
فلا أنا بقيت من فصيلة الزهورْ..
ولا أنا بقيت من فصيلة النساءْ..
فمن ترى يُقْنِعُني؟
أن السماء لَم تزل زرقاءْ؟
إنها روعة في المقدرة على الوصول بكلمات إلى عمق الأعماق في الإنسان!

***

وننتقل إلى بطاقة مرسلة إلى الشاعرة من حبيبتها الكويت..

نحن باقون هنا..
نحن باقونْ..
هذه الأرض من الماء إلى الماء.. لنا
ومن القلب إلى القلب.. لنا
ومن الآه إلى الآه.. لنا
كل دَبُّوسٍ إذا أدْمَى بلادي..
هو في قلبي أنا
****
نحن باقون هنا
هذه الأرض هي الأم التي ترضعُنا
وهي الخيمة والمعطف، والملجأُ
والثوبُ الذي يسترنا
وهي الحرف الذي نكتبهُ..
وهي الشعر الذي يكتبُنا
سندباد كان بحّاراً خليجياً عظيماً.. مِنْ هنا
والذين اشتركوا في رحلة الأحلام.. هم أولادُنا

وبعد، فيا أيتها العزيزة.. لقد ظلمونا عندما قيدونا بعدد محدود من الكلمات، ومجال القول ذو سعة، واللسان قائل، فأرجو المعذرة.

الوفاء .. والصدق

د.عَليّ الدّين هِلال[1]

أعـرف الدكتـورة سـعاد الصبـاح منـذ أكـثر مـن عشرين سـنة، وكانـت هذه المعرفـة في ظـروف متنوعـة ومناسـبات شـتى. اشـتركنا سـوياً في العديـد مـن النـدوات والمؤتمـرات التـي نظمتها هيئـات عربية مثل مركز دراسـات الوحدة العربيـة ومنتـدى الفكـر العـربي والمنظمـة العربيـة لحقـوق الإنسـان. كـما تعاملـت معهـا عميـداً لكليـة الاقتصـاد والعلـوم السياسـية بجامعـة القاهـرة باعتبارهـا إحـدى خرّيجـات الكلية. كـما عرفتها مواطنة عربية لم تدّخر وسـعاً في إبـداء الـرأي أو بـذل الجهـد تجاه القضايا التي شـدّت انتبـاه الأمّة. وفي كل هـذه المناسـبات عرفـت فيهـا معـاني التواضـع، والعمـل في صمـت دون جلبة أو ضجيـج، فكسـبت بذلـك عنـدي موقـع الاحـترام والتقدير.

ففـي مجـال العمـل الثقـافي والفكري، حرصـت الدكتورة سـعاد الصباح على المشـاركة في دعـم مؤسسـات المجتمع المـدني العربي، فكان لهـا دور لا ينكر في إنشـاء المنظمة العربية لحقوق الإنسـان، وفي دعم أنشـطتها المتنوعة. وكانت مشـاركاتها في النـدوات والملتقيـات الثقافيـة والفكريـة متميّـزة، عـبّرت عـن وعـي بواقـع مجتمعنا العربي المعـاصر وإدراك لخصوصياتـه وتنوعاته، وحرص عـلى تقدّمـه ونهضته. وفي كل المناسـبات كان لديها من الشـفافية والاسـتقامة

1- كاتـب مـصري حصـل عـلى بكالوريـوس كليـة الاقتصاد (قسـم العلـوم السياسـية - جامعـة القاهرة) عـام 1964. حصـل عـلى ماجيسـتير بجامعـة ماكجيـل في كنـدا عـام 1968، ودكتـوراه بجامعـة ماكجيـل في كنـدا عـام 1973. عميـد كليـة الاقتصـاد والعلـوم السياسـية، ووزير للشـباب.

والنزاهة ما سمح لها بالتعبير عمّا تؤمن به وعمّا تعتقد فيه بغضّ النظر عمّا إذا كان ذلك يرضي هذا الطرف أو ذاك.

وكان هناك تفاعل معها في إطار كليّة الاقتصاد والعلوم السياسية التي تفخر بالدكتورة سعاد الصباح واحدة من أبرز خرّيجيها. ولقد حرصت على الاحتفاظ بعلاقة وثيقة مع الكلية وأنشطتها، وكان لها عدد من المبادرات في مجال تطوير عمل الكلية وتحديث أسلوب العمل بها، ورفع مستوى التعليم والبحث فيها. وعلى سبيل المثال، ففي مجال تأهيل شباب أعضاء هيئة التدريس تم إنشاء "برنامج الدكتورة سعاد الصباح للبعثات الخارجية"، ووفقاً له يتم إرسال ثلاثة من المعيدين أو المدرسين المساعدين للحصول على درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات الأجنبية. وعند إتمام هؤلاء لدراساتهم، يتم ابتعاث مجموعة أخرى. وقد بدأ تنفيذ هذا البرنامج منذ عام 1990، وأفاد منه اثنا عشر عضواً من أعضاء هيئة التدريس في الكلية، وما زال مستمرّاً حتى الآن. كما قامت بدعم عملية تطوير مكتبة الكلية حتى أصبحت نموذجاً يُحتذى بين المكتبات الجامعية. فكانت أوّل مكتبة جامعية يتم استخدام الحاسب الآلي في إدارتها من حيث نظم التسجيل والاستعارة، وكانت أوّل مكتبة جامعية يتم إدخالها ضمن شبكة "المكتبات المصرية"، وتكون متصلة بشبكة "الإنترنت" العالمية. وفي مجال استخدام الحاسب الآلي، دعمت الدكتورة سعاد الصباح المركز الرئيسي للحاسب الآلي بالكلية. وهكذا شملت جهودها مختلف جوانب العملية التعليمية في الكلية. لذلك، كان من الطبيعي أن يقوم مجلس الكلية بتكريمها في احتفال الكلية بمرور أربعين عاماً على إنشائها في مارس 2001.

وخلال هذه الأعوام، سنحت لي فرص كثيرة للتعرّف على شخص الدكتورة عن قرب؛ فعرفت فيها المواطنة العربية التي تفخر بانتسابها الوطني وتزهو بولائها القومي، وعرفت فيها الإنسان الذي يجمع في تزاوج خلّاق بين الخصوصية القومية والتطلعات الإنسانية العامة. كما عرفت فيها معاني الوفاء للثقافة العربية ولمن أسدوا لهذه الثقافة خدمات جليلة. كما زاوجت في مجالها الفكري بين تخصصها العلمي في مجال الاقتصاد الذي يتطلّب التمحيص والتدقيق، وإبداعها الشعري الذي يتطلّب ملكات من نوع آخر.

وإذا كانت الدكتورة سعاد الصباح قد قامت بدور كبير في تكريم رموز الفكر والثقافة في بلادنا العربية، فإن هذه الشهادة، التي تصدر في كتاب لتكريمها، هي كلمة احتفاء وشعور بالواجب إزاء ما قامت به من أعمال وجهود تستحق كل الاحترام والتقدير.

الدكتورة سعاد الصباح.. وأوديسيّة الجاحظيّة

الطاهر وطار[1]

سـنة 1990، عامـاً بعـد تأسـيس الجمعيـة الثقافيـة الجاحظية، كنت أشـكو للشـاعر الكبـير أدونيس -وكان ضيفاً علينا- وضعيـة الجمعية المالية، باعتبارها جمعيـة تتجـه إلى الاسـتقلال التـام عـن السـلطة وعـن أجهزتهـا، وباعتبارهـا جمعيـة تتجنـب الخلـط بين الثقافي والسـياسي، وأنهـا تترك السياسـة للأحزاب ذات الاختصـاص، وأننـا صممنـا عـلى تخليـص الثقافة من السياسـة.

وصل بنا الحديث إلى المجتمع المدني العربي وإلى الدكتورة سعاد الصباح.

أثنـى عليهـا ونصحنـي بـأن أتوجـه إليهـا، فإنهـا لـن تبخل على مـشروع من هـذا النـوع.. والحـق أقـول، اعتراني نوع من الشـك في كلام أدونيـس، فقد كان متحمسـاً عـلى غـير عادته حينـما يتحدث عن الشـعراء والشـاعرات.

لم أكـن أعـرف عـن سـعاد الصبـاح سـوى مـا يـروج بـين الشـعراء العـرب، بعضهـم حـول بعـض، فقد تلقنـوا على أبي الطيـب المتنبـي أن كل واحد منهم أول وآخـر زمـان الشـعر منـذ قفـا نبـك، إلى قتلنـاك يـا آخـر الأنبياء.

لـو أنهـا روائيـة أو قاصـة، لتتبعت مـا تكتـب ولصنفتها، وصنفـت كتبها، أما

1- كاتـب جزائـري لـه العديـد من الروايـات والمجموعـات القصصية والمسرحيات عمـل في الصحافة التونسـية: لواء البرلمـان التونـسي والنـداء التـي شـارك في تأسيسـها، وعمـل في يومية الصبـاح. وأسـس في 1962 أسـبوعية الأحرار بمدينـة قسـنطينة وهـي أول أسـبوعية في الجزائـر المسـتقلة، ثـم أسـس في 1963 أسـبوعية الجماهـير بالجزائـر العاصمـة أوقفتهـا السـلطة بدورهـا، ليعـود في 1973 ويؤسـس أسـبوعية الشـعب الثقـافي وهـي تابعـة لجريـدة الشـعب، أوقفتهـا السـلطات في 1974 لأنـه حـاول أن يجعلهـا منـبرا للمثقفين اليسـاريين.

وهـي شـاعرة، وأنـا والشـعر لا نلتقـي إلا في الأمسـيات حيـث تشـدني كـروائي حـركات ونـبرات وملامـح الشـاعر أكـثر مما تشـدني صـوره وبلاغته.

مـع أننـي لم أتأكـد مـن نصيحـة أدونيـس، فالرجـل باطنـي، ويعـسر عـلى المـرء أن يميـز بـين المخفـي والظاهـر عنـده، فإنني بكل بسـاطتي وسـذاجتي، كتبـت رسـالة لا أذكـر اليـوم مـا قلت فيهـا، ولربما تكـون في وثائـق الجاحظية موجـودة. لم أكـن أملـك عنوانـاً أخاطـب بـه شـاعرة ثريـة، لقبهـا الصبـاح، فاكتفيـت بنعـوت المجاملـة والاسـم واللقـب، والكويـت.

اكتفيـت بالثقـة في سـاعي البريـد، وفي أن وزيـر البريـد الكويتـي نفسـه، سيسـعف الرسـالة الغريبـة. فيـما بعـد تسـاءلت، عـما إذا لم أكـن قـد أهنـت نفـسي وأهنـت الشـاعرة وأهنـت بلدهـا باعتبـاره حـارة واحـدة، كل النـاس فيهـا تعـرف بعضهـا.. كـم رسـالة من هـذا النـوع، يوجههـا الفقراء والمسـاكين واليتامـى وأبنـاء السـبيل، والمارقـون عـن الطواغيـت؟

تذكـرت حماقـاتي مـن هـذا النـوع وأضفـت إليهـا هـذه الحماقـة البدويـة أيضـاً، واتكلـت عـلى الذاكـرة في التخلـص مـن كل مكـروه كـما تعـودت أن تفعل .

انحـراف الـروائي فيّ، ظـل يشـغلني بأمـيرة تقـول الشـعر، وتمتلـك فلوسـاً كثـيرة.. كيـف تحيـا كيـف تعيـش، كيـف تقـرأ الشـعر، هـل يمكن أن تعشـق شـاعراً غليظـاً كالشـنفرى، وهـل يمكـن لشـاعر يتبطـن في كل مـا حولـه ومـا عليـه مثـل أدونيـس أن يحلـم كـما يحلـم باقي الشـعراء عـادة بأمـيرة، يقطع لسـانها كي لا تسـمعه شـعرها، أو خواطرهـا وهمومهـا، ويظـل يقـرأ عليهـا ما كتـب ومـا حفـظ، وعندمـا يصيبه الملل يشـبعها ضربـاً وبكاء ونحيباً وشـكوى

مـن الوضـع العـربي اللئيم.

لم أعـرف الأمـيرات والأمـراء إلا في الأدب الـروسي، أو في بعض الأفلام الغربية، وأدبنـا العـربي القديـم يحبـب إلينا أكـثر الجـواري والقيان، وتصـوري الخاطئ أيامهـا عـن الأوضـاع الحضارية في شـبه الجزيـرة والخليج، عقّـد علاقتي بهذه الأمـيرة الصحراوية.

مـرة أراهـا تمتطـي ناقـة بيضـاء وتطل من هـودج فلا يرى منها سـوى عينين دعجاويـن لامعتـين، ومـرة أراها في سـيارة مـن آخر طراز وفي لبـاس ينزع عنها مع الأسـف الشـديد كل وقار الأميرات.

آسـف أسـفاً شـديداً وأقـول لا يحق لأيـة أميرة سـوى أن تكون أميرة.. سـواء أكانـت عـلى ناقـة أم على سـيارة أم في طائـرة أم على حصان رشـيق.

كثـيراً مـا أتسـاءل أيـن يخفي أثريـاء وأمراء الجزيـرة والخليـج ثرواتهم؟ هل يضعونهـا في صناديـق ويخفونهـا في الرمـل؟ ومتـى يعدون نقودهـم، إذا كانوا يعدونهـا فعلاً؟

لا. أمـيرتي، تقـول الشـعر، ولا شـك أن مـا يسـيطر على ذهنها بعيـد جداً عن غـير الصور الشـعرية، والعواطف الرقيقـة النبيلة.

لم نكـن نسـمع أيامهـا بدار سـعاد الصبـاح للنشر، ولا بمشـاريع عبـد العزيز سـعود البابطـين، ولا بجائـزة العويس.

أتذكـر في خجـل رسـالتي الضائعة، وأتسـاءل عن مصيرها، وأتحول إلى شـاب مراهـق، تفطـن والـد جارتـه إلى الرسـالة فقرأهـا في غضـب ثـم أحرقهـا قبـل بلوغهـا صاحبتهـا.. وأركـز اللـوم على أدونيـس وأقول إنه هـو الذي وشى بي... لدولـة الكويـت.. للأمـم المتحدة.. للجامعـة العربية كذلك. فللشـعراء تقلبات

وأهـواء، ألم يقـل اللـه تعـالى فيهـم: «.. يتّبعهـم الغـاوون..» ولا أعتقـد إطلاقاً أن أدونيـس مـن الذيـن عملوا أو يعملـون الصالحات، وإلا لما ضاعت رسـالتي للأميرة الشـاعرة.

أنسى حماقتي المتمثلة في مراسلة شاعرة برنسيسة من دون عنوان دقيق.

كان لي موقـف صـارم أثنـاء غـزو الكويـت مـن طـرف جيـش صـدام، حيـث مشـيت في الخـط المعاكـس للأغلبيـة السـاحقة مـن الرعـاع والأدبـاء والكتّاب العـرب، أولئك الذيـن يدينون الديكتاتورية والفاشـية ويـنـادون بالديمقراطية، وفي نفـس الوقـت يبيتـون عـلى حلـم أن يسـتيقظوا في الصبـاح وفـوق رقابهم جزمـات بيسـمارك وهتلـر، حتـى تتحـول العشـائر والقبائـل إلى أمـة واحـدة ذات رسـالة خالـدة.. ومشـيت أيضاً ضـد التيار المسـيطر في الشـارع الجزائري وفي مؤسسـة الإذاعـة بالـذات التـي كنـت أديرها.

كان العقـل غائبـاً، وكان النـاس مـن حـولي خـارج الزمـن، حتـى إن بعضهـم تحدث عن مفعولات سـحرية يمتلكها صدام، وسـيخرجها في الوقت المناسـب، لتكـون طـيراً أبابيـل، تفنـي الأمريكان ومـن معهم في رمشـة عين.

سـألت رئيـس التحريـر حينهـا وهـو اليـوم صحـافي «قـد الدنيـا» في إذاعـة غربيـة شـهيرة، هـل اسـتعمل الماريشـال الـروسي فعـلاً عبـارة «العـدوان الأمريـكي» عـلى العـراق؟

قال: إنما دعماً لإخواننا العراقيين..

- تعلن حرباً عالمية أخيرة، قلت وأضفت، أنت معزول من منصبك.

وانطلقـت الحـرب ضـدي.. «وطـار» يكـره العـرب لأنـه بربـري، «وطـار» عميـل للأمريـكان وللصهيونيـة ولربمـا لموقاديشـو.

وانحصرت العروبة في قتل عربي قوي لعربي ضعيف.. في مازوشية غريبة.

أيامها، تذكرت الرسالة التائهة وحمدت الله على أنها لم تصل، لأتمتع براحة الضمير، ولا أقع تحت طائلة المثل «أطعم الكرش تستحي العين»، وعدت ألوم أدونيس لأنه أراد أن يورطني، في علاقة لا تعبق بروائح العطر الأميري، وإنما برائحة تلكم الآبار التي كانت تحترق أيامها، ثم عدت فشكرته على الوشايات التي قام بها ضدي ما في ذلك شك.

مع ذلك ضحكت وأنا أتذكر الذئب والعنب الذي لم يطله..

الدنيا عجائب، وللبشر حالات وحالات. وعسى أن يكره المرء شيئاً وهو خير له.

ذهبت أكثر من مرة إلى الكويت، وفي كل مرة أكتشف شعباً نشيطاً، يحسن العيش ويحسن التجارة، ويقرأ كثيراً.. وفي كل مرة أتمنى لو ألتقي بالشاعرة مصادفة ودون سابق ميعاد، فأنا بالإضافة إلى خجلي، والخشية من أن يفسر الناس شعبيتي بأنها ابتذال وسوقية خروتشوفية.. أفضّل في أمور معينة الحلم الصوفي في الحلول والتجلي.

جميل أن تظل الخاطرة خاطرة، رشيقة، تحملها الرياح وتطوف بها على المروج والرياض.. ولليلى الحق كل الحق في أن تبتعد عن المجنون، كلما دنا منها. والمثل الأعلى إذا ما بلغناه، فقد علويته وتدنى، وخلفه مثل أعلى منه .

ثم إنني لم أكلم أميرة في حياتي، إلا تلكم التي تزورني قبل النوم قادمة من أعماق البحار، تأخذني من يدي إلى عالم لا ظلم ولا حيف فيه.

كان بودي أن أسأل الدكتورة الشاعرة، هل وصلتها رسالتي، وهل عدم

ردها كان استياء. إلا أنني لم أصادفها إلا وهي تغادر الفندق بمدينة الرباط، حيث كانت تشارك في أشغال اللجنة العربية لحقوق الإنسان، إن لم تخني الذاكرة. وحيث كنت أشارك رفقة سعدي يوسف وعز الدين المناصرة، في ملتقى الرباط الثقافي.

كانت بحق رغم تواضع لباسها واحتشام زينتها، أميرة عربية، رشيقة، ولطيفة.

حيتنا بابتسامة، كان نصفها الأكبر موجهاً لي. وتمنيت لو أستوقفها فأسألها: هل هي ابتسامة امتنان لموقفي من قضية بلدها، أم هي وعد بالرد على رسالتي المسكينة؟

أردت أن أقول لها ما قلته في مدينة الكويت على منبر اتحاد الكتاب، إن الوفاء للمبادئ والالتزام بها في جميع الحالات لا يستوجب إطلاقاً الشكر والثناء.. إن راحة الضمير هي أغلى ثمن يتقاضاه المرء عن مواقفه، وإلا لما استشهد شهيد عبر التاريخ.

مرت الشاعرة كالغيمة، بينما راح سعدي يوسف، بعد أن عرف حكايتي مع أدونيس، ومع الرسالة التائهة، ينوه بمناقبها وبشعرها، ويعدني بأن يساعد الجاحظية، بالتقريب بينها وبين الأميرة الكريمة.

وعلق ضاحكاً، الظاهر أن أدونيس يكنّ لك وداً استثنائياً..

لقد عمل صالحاً، قلت وأنا أتذكر الذين يتبعهم الغاوون ومنهم سعدي يوسف، وعز الدين المناصرة وسعاد الصباح.

كثيراً ما تحضرني الحالة الجزائرية، والحالة الجزائرية هي أن تكسر الكأس الذي في يدك، ظناً منك أنه عزيز على كل من حولك، وأنه لا أحد منهم

يجـرؤ عـلى فعـل ذلك.. ذلـك أحد أوجـه الحالـة الجزائرية.

أيهـا العـرب إن كفـاح الجاحظيـة جـزء مـن كفـاح الشـعب الجزائـري، ضد الاسـتعمار الجديـد وضـد التغريبيين، ومن أجل أن يبقى معكـم عربياً.. لم أقل لسـعدي مـا خطـر ببـالي، حـين حـصر نصيحـة أدونيـس في العلاقة الشـخصية بينـي وبينـه.. ولم يكـن يومهـا، الدكتـور نـصر حامـد أبـو زيد، قـد تدخل لدى مؤسسـة الأمـير كلاوس ليدعـم الجاحظيـة بآلـة طابعـة قيمتها خمسـون ألف دولار، اقتناعـاً منـه برسـالة الجاحظيـة وبجدّيـة معركـة الشـعب الجزائـري، وببـؤس الطاهـر وطار.

عـثرت عـلى عنـوان الدكتـورة قبـل ذلـك، في وثائـق منتـدى الفكـر العـربي الـذي يرأسـه سـمو الأمير الحسـن بن طـلال، بعد أن ضممت إليـه دون طلب منـي، ثـم طـردت منـه لفقـري، عندما عجـزت عن تسـديد ثمن اشـتراكي، وهو مبلـغ زهيـد نسـبياً، طالمـا ألححـت عـلى نـاشر روايتـي «الشـمعة والدهاليز» بعـمان أن يسـدده، لكـن عبثـاً، فلا دفـع ولا دفع.. تـولاه مولاه.. ومـرة أخرى، أسـتعمل الآيـة الكريمـة: «وعـسى أن تكرهوا شـيئاً وهو خير لكـم»، فالتغيير لا يـأتي أبـداً على أيدي الشـيوخ والمتقاعدين.. وذوي السـوابق في مناهضة الفكر اليسـاري، وأيديولوجية الطبقـة العاملة.

كنـت سـأجد نفـسي بينهم كصالح في ثمـود، ولربما تحضرني الحالـة الجزائرية في أول جلسـة أحضرها، فيكـون ما يكون..

يكفينـي هـمّ الجاحظيـة، التـي بلغـت قـدراً كبـيراً مـن السـمعة وأصبحـت مطالبـة، بـأن تـؤدي أدواراً لا طاقـة لهـا بها، تكـبر تكاليفها ككـرة الثلج.. ولقد انسـقنا وراء الفـراغ الثقـافي الـذي سـاد ويسـود، وبخاصـة بعـد أن تخلـت

الدولـة أول مـا تخلـت، وهي تغـازل صندوق النقـد الدولي عن دعـم الثقافة، فتوقفـت المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب، وتعطلـت مجـلات الـوزارة، وانسـدت أبـواب النـشر في وجـوه الكتـاب شـباباً وغير شـباب، وأغلق المـسرح.. ولم يبق سـائداً سـوى أغـاني الـراي البذيئـة، والقتـل والحديـث عـن القتـل، وتعليقات الكتـاب والفنانـين «الجمهوريين» مـن القنوات الفرنسـية محرضة على القضاء النهـائي عـلى الآخـر ومـن ضمنـه الطاهـر وطار..

مـا لم تسـتطع السـلطة التخلـص منه، هـو ذهنية الحـزب الواحـد، المهيمنة عـلى كل قطاعـات الحيـاة، حتـى وإن كان يعتريها الوهن والعجـز.. والانزعاج مـن كل مؤسسـة أو جمعيـة أو حـزب لم تخلقـه هي أو لم تسـتول عليه.

كنـا قطبـاً وحيداً في السـاحة، وكانت الصحافة تلتقط أخبار نشـاطنا بتلهف، وكان هـذا يزعجنـا كثـيراً، وفشـلنا في تفاديـه، وهـو مـا يجنـن الأوتوتاريـات العربية.

حاولـوا تشـظية الجمعيـة (والتشـظية أسـلوب تتبعه الكاجيبـي ومن تتلمذ عليهـا أحيانـاً بصفـة آليـة)، ففـي 1993 منحـوا مبالـغ طائلـة لمجموعـة مـن الأدبـاء وأمروهـم بإنشـاء جمعيـة سـموها المعنى.

حاولـوا بعـد سـنة إغـراء عضـو مكتـب منـا ووضعـوه رئيسـاً للمعنـى، ولمـا فصلـوه عنـا تخلـوا عنـه بكل أخـوّة.

جندوا طاقات عديدة لإنعاش اتحاد الكتاب، دون جدوى.

اجتمعنـا -مكتـب الجمعيـة- مـع وزير الاتصـال والثقافة، وشـكونا له حالنا، فـما كان مـن معاليه، إلا إنشـاء جمعية، ترأسـها معاليه، ووضـع رئيس ديوانه، أمينـاً عامـاً لهـا.. لمـا طالبنـا بتطبيـق مـا ورد في محـضر الجلسـة الـذي بيننـا

تساءل، عن أي محضر يتعلق الأمر.. وقبل أن يغادر الوزارة، كلف معاليه من أنشأ جمعية جديدة.. ما تزال لحسن الحظ نشيطة.

الفرنكوفونيون ومن معهم من الداخل والخارج، أجمعوا على أنه لا فرق بين علي بلحاج وعباسي مدني والطاهر وطار.

كنت الوحيد من الكتاب الناجي من الوقوع في فخ تأييد إيقاف المسار الانتخابي، بزعم الدفاع عن الجمهورية التي لم أعرفها في يوم من أيام استقلال الجزائر.. فلم يكونوا يرون من الجاحظية سوى شخصي، ولا يزالون كذلك حتى اليوم، إذ لا يرد اسمي أو الجمعية، في جريدة مفرنسة، إلا في حالات الشتم والقذف.

يوزعون الدعم على الجمعيات، فيكون نصيب الجاحظية، أرذل نصيب، إن لم يوقفوه أصلاً، بل لقد أرسلوا المجلس الأعلى للمحاسبة ليدقق قرابة الشهرين في حسابات الجاحظية، بحثاً عن الخلل، لكن في الأخير ولنزاهة المحاسبين المكلفين وضعوا تقريراً ينوه بنشاط الجاحظية ويطالب بدعمها ويدين وزارة الثقافة.

بلغنا حد الفاقة والاحتياج، ولم يبق أمامنا سوى الاستسلام للمصير الذي حدده أعداء وخصوم الثقافة.

صارت تعتريني حالات هوس، أستيقظ في الليل، هارباً من فراشي، يطاردني السؤال: ما العمل؟

مجلة التبيين ينبغي أن تتواصل.

العدد الجديد من مجلة القصيدة ينبغي أن يصدر.

كراء المحل ينبغي أن يدفع.

الفرقة المسرحية المتأهبة للسفر إلى القاهرة في إطار المسرح التجريبي، ينبغي ألا تتوقف رغم أن الوزارة رفضت الفكرة من أصلها.. زاعمة على لسان مدير الآداب والفنون الشاعر أحمد حمدي أن الدولة سترسل فرقة «وطنية». والغريب في الأمر أن وزير الثقافة يومها هو ابن شاعر الثورة الذي نبذته الجزائر بعد الاستقلال، فكرسنا له جائزة شعرية سنوية مغاربية، أعادت له الاعتبار وأعادته إلى الساحة، وصرنا نحسد عليه، وقد كنا نتوقع هذا منذ اليوم الأول.

الدائنون -كثر الله خيرهم- طال صبرهم وسكوتهم أيضاً.

المبالغ الزهيدة التي ندفعها للبنات المتعاونات وللمحاضرين يجب ألا تتوقف.

أصرخ: لن أسمح ما دمت على رأس الجمعية، بالخضوع للسياسيين، فنغرق في مواقف التأييد والمساندة، والاستنكار والتنديد وما إلى ذلك من عبارات قاموس الديكتاتوريات.

شجعتني بسمة الأميرة الشاعرة، التي لم أفهم كنهها حتى اليوم، على كتابة رسالة ثانية، أشكو فيها ضيق الحال، ولا أدري الباقي من العبارات التي استعملتها، ولحسن حظ الجاحظية، صادف أن سجلت معي المنشِّطة التونسية المثقفة كوثر البشراوي حصة، لم تخف فيها تعاطفها مع الجاحظية، ولم أخف فيها الوضع.

جاء رد الدكتورة الشاعرة سعاد الصباح، غيثاً سحساحاً، مع كلمة طيبة ترق فيها لحالي وحال الجاحظية.. وما يزال من سنة لأخرى يطل علينا بريد لطيف من الكويت الشقيق، يحمل في ثناياه جزءاً من البسمة

اللطيفة التي أثق في أن نصيبها الأكبر كان لي.

مازلنا كلما ضاق بنا الحال، نعلق الأمل على تلكم البسمة، وما زلنا نسعى لاستقدام الشاعرة، وليس غير الشاعرة، لتقرأ الشعر في رحاب الجاحظية، ومنذ أيام (مطلع أغسطس 2001) طرحت الفكرة على رئيس ديوان رئيس الحكومة فرحب بذلك.

أيتها الأخت الطيبة..

إن ما نفعله، أنت ونحن، وكل الذين يحاربون الجهل والطغيان، هو وحده الطريق الموصل لوحدة أمتنا الكبيرة.

بفضل تدخلك في الوقت المناسب، تستمر الجاحظية حتى اليوم.

إن عشرات الشباب الذين ننشر لهم أعمالهم يثنون عليك وعلى بلدك العزيز.

إن عشرات الشباب الذين يتعلمون القيثارة والبيانو يحيونك بكل نغمة يعزفونها.

إن مطبعتنا المتواضعة، لم تتوقف عن الدوران بفضل دعمك. وبكل فخر نعتبر ما يصدر عنها جزءاً من منشورات دار سعاد الصباح.

لقد أنقذتنا في الوقت المناسب، فلك الشكر الجزيل.

وكان الله معك في كل الأحوال.

الفهرس

مقدمة 7

سعاد الصباح.. الامتياز الإنساني
د.حسن الإبراهيم 11

سعاد الصباح.. الإنسانة ورحلتها مع حقوق الإنسان
فاروق أبو عيسى 19

سعاد الصباح.. سيدة المبادرات
طلال أبو غزالة 24

الكم.. لكن لا على حساب الكيف
إسماعيل فهد إسماعيل 27

.. من رسالة خاصة جداً
نضال الأشقر 30

سعاد الصباح.. بين الأجمل والأقسى في مكنون العرب
د. محمد جابر الأنصاري 33

سعاد الصباح.. شاعرة البوح والرفض
محمد البعلبكي 37

نخلة عربية في فيافي الكلمة
ثريا البقصمي 42

سعاد الصباح.. شاعرة
عبدالله الجفري 45

الدكتورة سعاد الصباح
د.يحيى الجمل 49

سعاد الصباح.. رمز الإبداع والنضال
د.الحبيب الجنحاني 54

صديقتي سعاد
د. فاطمة العالمي الحبابي 60

شاعرة الضوء
لامع الحر 66
سعاد الصباح.. بين الكلمة والعطاء
طالب الرفاعي 72
سعاد.. وكتاب الخلود
عبد الرحمن رفيع 76
قل قلباً وأجمل..
ماجدة الرومي 78
سلاح سعاد الصباح القصيدة..
د. سمير سرحان..... 79
الإنسانية بتجلياتها الرائعة
د. عبد الرحمن السميط 82
سعاد الصباح كما عرفتها
ليلى شرف..... 85
سعاد الصباح.. إشراقةُ فكرٍ وسوسنةُ حبٍّ
ليلى محمد صالح 95
وهل تحتاج سعاد الصباح إلى شهادة؟؟
حسن صبرا..... 102
سعاد الصّديقة
د. هُدى عَبد الناصر 109
سعاد الصباح.. نخلة تمشي أمام القافلة
د. منى مكرم عبيد 115
ابنة الخُلد
إبراهيم العريِّض 120
الخروج من مرحلة الصمت
د. ثريا إبراهيم العريّض..... 121

شاعرة النخيل
سمير عطا الله 126
الصديقة سعاد
د. وجَدان عَلي 131
سعاد الصَباح.. والبساطة المستحيلة
جَمال الغيطاني 133
سعاد الصباح.. لا تتكرر
محمد فائق 143
إلى صديقة الأيّام الخضراء.. والعمر الجميل
زينب عبدالسّلام القاضي 149
الصورة والظلال
محمّد خالد القطمة 154
الشّاعرة.. الشّاعرة
سَعدِيّة مُفرح 167
سعاد الصباح.. ظاهرة إبداعيّة مركّبة
زكَرِيّا نيل 176
الوفاء .. والصدق
د.عَليّ الدّين هِلال 182
الدكتورة سعاد الصباح.. وأوديسيّة الجاحظيّة
الطاهر وطار 185

صدر للدكتورة سعاد محمد الصباح

في مجالات السياسة والتاريخ والاقتصاد والعلوم الاجتماعية

1 التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة
2 أضواء على الاقتصاد الكويتي
3 المرأة الخليجية ومشاركتها في القوى العاملة
4 الأوبك: التجربة السابقة والتوقعات المستقبلية
5 السوق النفطي الجديد: السعودية تسترد زمام المبادرة
6 أزمة الموارد في الوطن العربي
7 هل تسمحون لي أن أحب وطني
8 صقر الخليج: عبدالله مبارك الصباح
9 حقوق الإنسان في العالم المعاصر
10 حقوق الإنسان: بين النظرية والتطبيق
11 ماذا تعرف عن حقوق الإنسان؟
12 أوراق في قضايا الكويت (1, 2)
13 أوراق في الاقتصاد الخليجي
14 أوراق في السياسة الدولية
15 أوراق في الاقتصاد السياسي الدولي (1, 2)
16 أوراق في السياسة النفطية (1, 2)
17 مبارك الصباح مؤسس دولة الكويت الحديثة
18 كلمات خارج حدود الزمن
19 تاريخ الشيخ عبدالله مبارك الصباح في صور
20 الكويت في عهد عبدالله بن صباح الصباح
21 مرت السنوات وما زالت كما هي الكلمات
22 وتبقى شجرة الصداقة مثمرة
23 الكويت في عهد محمد بن صباح الصباح
24 الكويت في عهدي جابر بن عبدالله الصباح وصباح بن جابر الصباح
25 تأسيس الكويت في عهدي صباح الأول و عبدالله الأول

الإصدارات الشعرية

1 من عمري

2 أمنيــة

3 إليك يا ولدي

4 فتافيت امرأة

5 في البدء كانت الأنثى

6 حوار الورد والبنادق

7 برقيات عاجلة إلى وطني

8 آخر السيوف

9 قصائد حب

10 امرأة بلا سواحل

11 خذني إلى حدود الشمس

12 القصيدة أنثى والأنثى قصيدة

13 والورود تعرف الغضب

14 رسائل من الزمن الجميل

15 الشعر والنثر.. لك وحدك

16 قراءة في كف الوطن

17 وللعصافير أظافر تكتب الشعر

إنها حقاً امرأة العصر العربية، وهي مثال ساطع على كل ما تحمل هذه الكلمة من معان. مثال جدير بالدراسة ليكون أسوة تحتذى، وما أحوجنا لمثل هذه الأسوة في وقتنا الحاضر.

د. حسن الإبراهيم

سعاد الصباح عصفورة رقيقة من الكويت، حلقت في سماء وطنها، الممتد من الخليج إلى المحيط، فاحتوت بروحها الوثابة وأشواقها المتطلعة للحرية هموم الإنسان العربي.

فاروق أبو عيسى

هي شاعرة أولاً ثم هي سيدة أعمال، وسياسية، وباحثة اقتصادية، وهي بذلك وقبله ركن أساس في حركة تحرير الإنسان العربي لإيمانها بتحرير المرأة العربية.

طلال أبو غزالة

لم تكن مبدعة فن وحسب، كانت مبدعة قيم وأخلاق كذلك.. وما أندر مثل هذا الإبداع في حاضر العرب.. كانت مبدعة نجدة وشهامة.

د. محمد جابر الأنصاري

عالجت سعاد الصباح في شعرها بعض الأمراض المتغلغلة في المجتمع العربي، مستعملة في ذلك لغة "الكي"، مما جعل هذا المجتمع ينتصب في وجهها صارخاً لأنه لم يعتد وجود امرأة تعالج الأمراض وتصف الدواء.

محمد البعلبكي

و"سعاد الصباح" مبدعة معنية بعالمها، ومتألمة بقضايا إنسانها.. تضيء فكراً، وتمطر شعراً حين يستبد بها الحزن الإنساني.

عبدالله الجفري

وكانت هي التي تشعر الجميع أنها قريبة منهم، كانت، وما تزال –أطال الله عمرها- كنفاً للذين يألفون ويؤلفون ويشيعون حولهم جواً من الثقة والدفء والتفاؤل.

د. يحيى الجمل

تأتينا من بلاط عظيم، صولجانها قلم مضموم بالورد، مرفوع بالحب، وعلامة رفعته ذاك السناء البهي سليل الصباحات الندية في الكويت.

ماجدة الرومي